المفارقة في مقامات (السَّرَقُسْطي) اللزومية

دكتور
محمد عبد المطلب محمد جودة
مدرس الأدب والنقد – كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنين بدمياط الجديدة – جامعة الأزهر
– جمهورية مصر العربية

الملخـــص

تهدف هذه الدراسة إلى رصد، وتتبع تقنية المفارقة في المقامات اللزومية (للسرقسطي)، وإظهار الأبعاد الدلالية والجمالية، والرؤى الفكرية، على مستوى المقامة التي اتسمت بها تجربة الأديب، والتي حفلت بالتناقض في أحداثها وشخصياتها، والتباين في مدلولاتها اللغوية، وبالتالي انعكست على الوجود الإنساني؛ فظهرت من خلال الصور الأدبية، التي تعبر عن الواقع وقضاياه؛ وفق إطار تعبيري، يكسر أفق التوقع لدى المتلقي، وفي سبيل إجلاء ذلك، انتظمت الدراسة في مقدمة، وتمهيد، وستة مباحث، وخاتمة، وفهرسين، فجاء التمهيد بعنوان: المفارقة مفهومها، ووظائفها، ثم توالت المباحث كاشفة عن صور وأنماط المفارقة لدى السرقسطي، ودلالاتها السياسية، والاجتماعية، والثقافية، فكان المبحث الأول بعنوان: صور المفارقة في مقامات السَّرَقُسْطِي(المفارقة اللفظية)، والثاني بعنوان: مفارقة السخرية، والثالث بعنوان: مفارقة الشخصيات، والرابع بعنوان: مفارقة المكان، والخامس بعنوان: مفارقة الزمان، والسادس بعنوان: المفارقة التصويرية، ثم الخاتمة، وقد اشتملت على أهم النتائج، ثم الفهارس.

الكلمات المفتاحية: المفارقة – المقامات – اللزومية – السرقسطي.

دكتور

محمد عبد المطلب محمد جودة

مدرس الأدب والنقد – كلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنين بدمياط الجديدة – جامعة الأزهر

جمهورية مصر العربية

MohammedSyed.33@azhar.edu.eg

Abstract

This study aims to monitor and follow the paradoxical technique in the obligatory maqamat (by Zaraqusti), and to show the semantic and aesthetic dimensions, and intellectual insights, at the level of the maqama that characterized his maqama experience, which was full of contradiction in its events and characters, and the discrepancy in its linguistic connotations, and thus reflected on human existence. ; It appeared through literary images that express reality and its issues. According to an expressive framework, which breaks the horizon of expectation of the recipient, and in order to clarify this, the study was organized into an introduction, a preface, six topics, a conclusion, and two indexes. , social, and cultural, the first topic was entitled: Images of Paradox in the Maqamat of Zaraqusti (verbal paradox), the second entitled: The Paradox of Irony, the third entitled: The Paradox of Characters, the fourth entitled: The Paradox of Place, the fifth entitled: The Paradox of Time, and the sixth entitled: The Paradox of Pictorial, Then the conclusion, which included the most important results, and then the indexes.

Keywords: paradox – denominations (maqamat) – indispensability (obligatory) - al-Sarqusti.

Dr

Muhammad Judah
Department of Literature and Criticism
College of Islamic Studies
And Arabic for boys in New Damietta
- Al-Azhar University
MohammedSyed.33@azhar.edu.eg

مقدمـــة

لا تخلو الحياة من التناقض والتضاد والمفارقة، فمنذ أن وجد الإنسان في هذه الحياة، وهو يتأرجح بين الضيق والسعة، بين الرضا والغضب، والحزن والفرح، والراحة والتعب، وغير ذلك من ثنائيات التضاد، أو التوافق، التي تلازم الإنسان تجاه مواقف الحياة، ولعل هذا يجعلنا نستحضر قول (العقاد) وهو يعبر عن هذه الثنائية، وهذا التناقض الذي يعتري الإنسان بين الفينة والأخرى:

صـــغير يطلـــب الكبـــرا وشـــيخ ودَ لـــو صـــغرا

وخـــال يشـــتهى عمـــلا وذو عمـــل بـــه ضـــجرا

وربّ المـــال فـــي تعـــب وفـــي تعـــب مـــن افتقـــرا

ويشـــقى المـــرء منهزمـــا ولا يرتـــاح منتصـــرا

ويبغـــى المجـــد فـــي لهـــف وإن ظفـــر بـــه بطـــرا

فهـــل حـــاروا مـــع الاقـــدا رِ امْ هـــم حيّـــروا القـــدرا

فالمفارقة موجودة منذ وجد الإنسان، حيث " حصلت الاستجابة إليها قبل أن يطلق عليها اسم، وقبل أن يوجد لها مفهوم، وأما الكلمة فقد كانت موجودة قبل أن تطبق على المفهوم " [1]

وبالتالي فللمفارقة: " أهمية لا تنكر في مجال الأدب، حيث تمنحنا فرصة التأمل فيما تقع عليه أعيننا، أو ينبه عليه إدراكنا، مما يحيط بنا من مظاهر التناقض والتغاير، فيدفعنا للتبصر به، والبحث عن العلاقات التي تجمع عناصر المتشكل أمامنا، وما بينهما من اتساق أو تنافر، فالمفارقة تعطي فرصة لحضور المتضادات في سياق واحد،

(١) حدائق إبراهيم، أوراق إبراهيم طوقان ورسائله ودراسات في شعره، المتوكل طه، ص ١٢٩، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

فيبدو حسن أحدهما بإزاء قبح الآخر، أو يبدو قبح أحدهما بإزاء حسن الآخر.." [١]

وهذه سمة الأدب الخالد، الذي يظل حياً في أذهان قرائه، وطازجاً كأنه كتب اليوم، رغم مرور الزمن، قابلاً للنقاش والإعجاب، وباعثاً للدهشة الكاملة، محفوراً في القلب، بعيدا عن الملل والسأم.

وقد وقع الاختيار على مقامات (السرقسطي) اللزومية؛ نظرا لأن المفارقة فيها بارزة وواضحة، فكانت نتيجة طبيعية لعصر الأديب (عصر ملوك الطوائف)، بكل ما فيه من تناقضات سياسية، واجتماعية، وثقافية، ودينية؛ جعلت الأديب يشعر بالاغتراب في الزمان، والمكان، والنفس. **وقد سماها الأديب بـ(المقامات اللزومية)** كما ذكر ذلك المحقق في مقدمته " ولزم في نثرها ونظمها مالا يلزم فجاءت على غاية من الجودة " [٢]، وهي التي ستدور حولها الدراسة.

وهي: " منسوجة على منوال مقامات الحريريّ، سواء في الأسلوب الرفيع ذي الصنعة نوعا ما، أم في مضمون الحكاية. كما هو واضح من اسم الكتاب، التزم السرقسطي بلزوم ما لا يلزم، على ما سنّه سابقا (أبو العلاء المعريّ) في لزومياته. وهذه طريقة خاصة تبنى فيها القافية على لزوم حرف زائد على الأقل قبل حرف الروي. وبالرغم من هذا التكلّف وتلك المقتضيات الشكليّة، فإنّ سجع المقامات اللزومية "سهل سائغ لا يحسّ قارئه فيه تعسفا أو مغالاة. زيادة على ذلك " قلما عثرنا على أثر التكرار فيهما- أي اللفظين المترادفين... والألفاظ... لم يأت كثير منها زائدً ا على الحاجة " [٣]

(١) في الرواية الفلسطينية، صالح فخري، ص٤٣، مؤسسة دار الكتاب الحديث، لبنان، ط١، ١٩٨٥م.

(٢) المقامات اللزومية، لأبي الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي (ت٥٣٨ هـ)، تحقيق: د حسن الوراكلي، ص ١٧، دار عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط٢، ٢٠٠٦م.

(٣) صورة المجتمع الأندلسي في المقامات اللزومية للسرقسطي، محمد السيد أحمد حسن، ص٤، رسالة ماجستير، جامعة المدينة العالمية، ١٤٤١هـ-٢٠١٩م..

وتكمن أهمية الدراسة في جديتها؛ إذ لم يتناولها أحد بالدرس والتحليل– في حدود علمي- وقد شكل ذلك دافعا قويا لدي الباحث بدرسها وتحليلها؛ وصولا إلى فلسفتها الجمالية والفنية، فضلا عن كشفها معالم الحياة المتباينة في عصر الكاتب، **مستعينا في– معالجة هذه الدراسة- بالمنهج الفني القائم على تحديد ظاهرة (المفارقة) وتحليلها داخل نصوص مقامات السرقسطي وبيان أسبابها ونتائجها الفنية والجمالية، مع الاستعانة ببعض المناهج** الأخرى في تجلية بعض ظواهر الدراسة.

وأما عن الدراسات السابقة: التي تعرضت لمقامات (السرقسطي) فمنها:

١- رسالة ماجستير جامعة مؤته للباحثة (فاطمة عبد السلام الرواشدة)، بعنوان (المقامات اللزومية دراسة نصية) وقد تناولت المقامات اللزومية وفقا لحقول السرد ومعطياته(الزمان -المكان -الاستهلال- الراوي وموقعه-المروي عليه- صيغ الخطاب).

٢- رسالة ماجستير بعنوان(صورة المجتمع الأندلسي في المقامات اللزومية للسرقسطي) للباحث(محمد السيد أحمد حسن) جامعة المدينة العالمية.

٣-بحث منشور بعنوان(التشكيل الزمني في المقامات اللزومية للسرقسطي) للدكتور عادل هنداوي شعبان- مجلة كلية دار العلوم- جامعة القاهرة.

٤-بحث منشور بعنوان(التشكيل المكاني في المقامات اللزومية للسرقسطي) للدكتورة/ أمينة الشريف سالم، جامعة سرت، موقع المنظومة.

وهي -كما ترى- تدور حول مقامات السرقسطي اللزومية- وهي في غالبها تتناول المقامات من حيث بنيتها السردية كما أشرنا- أو دلالاتها الاجتماعية كما في رسالة (صورة المجتمع الأندلسي في المقامات اللزومية)، ومن ثم فهي تختلف عن بحثي؛ نظرا لأنها تناولت المقامات من حيث بنيتها السردية، ولم تتعرض المفارقة فيها.

وقد جاءت الدراسة في مقدمة، وتمهيد، وستة مباحث، وخاتمة، وفهرسين، فجاء التمهيد بعنوان: المفارقة مفهومها، ووظائفها، ثم توالت المباحث كاشفة عن صور وأنماط المفارقة لدى السرقسطي ودلالاتها السياسية، والاجتماعية، والثقافية، فكان المبحث الأول بعنوان: صور المفارقة في مقامات السَّرَقُسْطِي(المفارقة اللفظية)، والثاني بعنوان: مفارقة السخرية، والثالث بعنوان: مفارقة الشخصيات، والرابع بعنوان: مفـارقة المكـــان، والخامس بعنوان: مفارقة الزمـــان، والسادس بعنوان: المفارقة التصويرية، ثم الخاتمة، وقد اشتملت على أهم النتائج، ثم الفهارس.

وأسأل الله العون والقبول، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وصحبه وآله وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيد/ المفارقة مفهومها، ووظائفها

لم يظهر مصطلح (المفارقة) صراحة في النقد العربي القديم، كما ظهر في الدراسات النقدية الغربية، ولا يعني ذلك خلو التراث العربي الأدبي من ألفاظ، تقوم مقام المفارقة أو تقترب منها كما هي الحال في اللغة الانجليزية والأوربية، حيث نجد ذلك في العربية أيضا فـ: " ألفاظ مثل: السخرية والهزء والتهكم والازدراء والغمز وغيرها، ظلت ألفاظا شائعة، تحمل شيئا من عناصر المعنى، أو دلالته التي تحملها لفظة المفارقة، أما في الاستعمال الأدبي، والبلاغي فقد استعملت مصطلحات أخرى، حملت بدورها شيئا من مصطلح المفارقة مثل: التعريض، والتشكك، والمتشابهات، وتجاهل العارف، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وتأكيد الذم بما يشبه المدح" (١)

ومصطلح المفارقة مهما تعددت دلالاته، وتنوعت سياقاته، إلا إنه لا يزال مرتبطا بجذره اللغوي، والجذر اللغوي لهذا المصطلح، يتكون من: " الْفَاءُ وَالرَّاءُ وَالْقَافُ، وهي أُصَيْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَمْيِيزٍ وَتَزْيِيلٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ. مِنْ ذَلِكَ الْفَرْقُ: فَرْقُ الشَّعْرِ. يُقَالُ: فَرَقْتُهُ فَرْقًا. وَالْفِرْقُ: الْقَطِيعُ مِنَ الْغَنَمِ. وَالْفِرَقُ: الْفِلْقُ مِنَ الشَّيْءِ إِذَا انْفَلَقَ، قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الشعراء: ٦٣ " (٢)

فهناك تباعد بين الفرقين يسمح بمرور الجموع الحاشدة؛ لذلك قيل في اللغة: المفارقة المباينة، وتباين القوم تهاجروا وتباعدوا. فهناك في الدلالة اللغوية بعد شديد بين أمرين أدى للتفارق، والمفارقة هي المباينة والمفاصلة والانقطاع، والافتراق مأخوذ أيضا من الانشعاب والشذوذ،

(١) نظرية المفارقة، خالد سليمان، مجلة أبحاث اليرموك(سلسلة الآداب واللغويات) م٩، ع٢، ص٦٥، الأردن، ١٩٩١م.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (المتوفى: ٣٩٥هـ)، ت: عبد السلام محمد هارون، ص٤٩٣، جـ٤، دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

ومنه الخروج عن الأصل، والخروج عن الجادة، والخروج عن الجماعة.

كما يلحظ في الدلالة اللغوية للمفارقة أمرا نفسيا مترتبا على البعاد مثل البغض بين المتفارقين، والعناد.. (١)

وأما عن التطور التاريخي للمصطلح فلربما كان أول من استخدم المفارقة (سقراط) يشير إلى ذلك: " أفلاطون في كتابه (الجمهورية) حيث يورد مصطلح (إيرونيئيا) ذاكرا أن أحد ضحايا سقراط كان يطلقها عليه قاصدا بها: طريقة ناعمة هادئة في خداع الآخرين" (٢)

فالمصطلح كما ترى نشأ في محيط فلسفي، ولعل المصطلح اليوناني (paradox) يبرهن صحة هذا التوجه، حيث إنه يتألف من مقطعين: " من البادئة (para) وتعني المخالفة أو الضد، ومن الجذر (doxa) وتعني الرأي، فيكون معنى الكلمة ما يضاد الرأي الشائع" (٣)، أي أن الكلمة ترجمت إلى العربية بمعان متعددة كالمفارقة، والتناقض، وجدل الأضداد.

وفي الإنجليزية: " لم تظهر المفارقة إلا بعد عام ١٥٠٢، كما أنها لم تدخل الاستعمال الأدبي إلا في بداية القرن الثامن عشر" (٤)

ولم يمنع هذا وجود عبارات سائرة في الاستعمال اللفظي، تقترب من جو المفارقة، مثل: يسخر، يهزأ، يعير، يغمز، يتهكم، يحتقر، يهين (٥) كما أُشير من قبل، وغاية الباحث هنا هو العرض لبعض تعريفات المفارقة؛ من أجل الوصول إلى تقديم رؤية شاملة، وواضحة لمعنى المفارقة.

---

(١) ينظر: المفارقة في اللسان العربي، د سعيد جمعة، ص٥٧، وما بعدها، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، المجلد ٣٠، العدد ١، ٢٠١٥م.

(٢) المفارقة والرؤية في شعر صلاح عبد الصبور، د. أحمد فهمي محمد عبد الله، مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية، ص٤٧٣، ع١٢،يونيو ٢٠١٦م.

(٣) المعجم الفلسفي، مراد وهبه، جـ ٣، ص٤١٧، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٩م.

(٤) نظرية المفارقة، خالد سليمان، مجلة أبحاث اليرموك (سلسلة الآداب واللغويات) م٩، ع٢، ص٦٢، الأردن، ١٩٩١م.

(٥) ينظر السابق، بتصرف.

هذا وقد تعددت مفاهيم المفارقة؛ نظرا لتعدد وظائفها وأنماطها، ولعل الألماني (فردريك شليجل) أول من أدخل مصطلح المفارقة إلى المجال الأدبي، فكان له شأن في إرساء أسس المفارقة، حيث نظر إليها أكثر من زاوية؛ ولذلك تعددت تعريفاتها عنده، فهي شكل من أشكال النقيضة، وهي إدراك لحقيقة أن العالم في جوهره، ينطوي على تناقض، وهي الصراع بين المطلق والنسبي، فالنقيضة شرط لا بد منه للمفارقة، فهي مصدرها وروحها ومبدأها [١]

ولم يخلو مفهوم المفارقة في المشهد النقدي الغربي من مراوغة، فهي تعني عند(أرسطو) (الاستخدام المراوغ للغة)، وهي شكل من أشكال البلاغة، أما (ميويك) فيذكر تعريفاً للمفارقة أكثر تطورا، إذ إنه لم يحصر المعنى المراد بدلالة واحدة، فيقول هي: " قول شيء بطريقة تشير لا تفسيراً واحداً، بل سلسلة لا تنتهي من التفسيرات المغايرة " [٢]

ولقد عرف النقاد العرب المحدثون، المفارقة بوصفها مصطلحاً نقدياً، متأثرين بما جاء عن الغرب، تقول سيزا قاسم: المفارقة هي: " استراتيجية قول نقدي ساخر، وهي في الواقع تعبير غير مباشر عن موقف عدواني يقوم على التورية، وهي طريقة لخداع الرقابة " [٣]، وهذا التعريف كما تلاحظ في قولها (وهي طريقة لخداع الرقابة) يضيق واسعا، ويقلل من شأن المفارقة؛ إذ هي: " سلسلة لا تنتهي من التفسيرات المغايرة " على نحو ما رأينا في تعريف (ميويك) السابق.

(١) ينظر: آلية المفارقة، تعريفاها، أنواعها، طريقة بنائها، أثير محسن الهاشمي، مجلة ثقافتنا، ص ٤٨، بغداد، عدد ١٢، ٢٠١٣م، بتصرف.

(٢) ينظر: المفارقة والأدب دراسة في النظرية والتطبيق، خالد سليمان، ص١٢٩، دار الشرق، عمان، ط١، ١٩٩٩م.

(٣) المفارقة في النثر الأندلسي، عروبة عودة محمد، ص١٩٠، الجامعة المستنصرية - مجلة كلية التربية، عدد٢، ٢٠٢١م.

وتعّرفها(آمنة رشيد) بقولها هي: " نظرة إلى العالم، وموقف من حقيقة الأشياء " [١]، وتعرفها د(نبيلة إبراهيم) بقولها: " تعبير لغوي بلاغي، يرتكز أساسا على تحقيق العلاقة الذهنية بين الألفاظ، أكثر مما تعتمد على العلاقة النغمية أو التشكيلية، وهي لا تنبع من تأملات راسخة، ومستقرة داخل الذات، فتكون بذلك ذات طابع غنائي وعاطفي، ولكنها تصدر أساسا عن ذهن متوقد، ووعي شديد للذات بما حولها " [٢]

فالمفارقة كما ترى تقنية لغوية تحتاج إلى مهارة من المرسل والمرسل إليه، أو من صانع المفارقة وقارئها، وذلك من خلال لغة الاتصال بينهما؛ التي تمكن القارئ من الوقوف على الدلالة الخفية، التي يريدها المبدع والأديب.

وعند الدكتور/ محمد العبد، تعني نوعا: " من التضاد بين المعنى المباشر المنطوق، والمعنى غير المباشر" [٣]، ولا شك في أن هذا التضاد، يتوصل إليه القارئ عن طريق السياق العام للنص.

كما تُعرف بأنها: " تكنيك فني، يستخدمه الشاعر المعاصر؛ لإبراز التناقض بين طرفين متقابلين بينهما نوع من التناقض" [٤]، أو أنها تعبير لغوي بليغ، يسعى إلى: " استثارة القارئ وتحفيز ذهنه؛ لتجاوز المعنى الظاهري المتناقض العبارة، والوصول إلى المعاني الخفية " [٥]، وبالتالي فليست المفارقة -كما تبين- مجرد تناقض قول مع آخر، بل هناك غاية، وهناك دلالة يرمي إليها الأديب.

---

(١) المفارقة الروائية والزمن التاريخي، آمنة رشيد، مجلة فصول، ص١٤٣، مجلد٤، عدد١١، ١٩٩٣م.

(٢) المفارقة، نبيلة إبراهيم، مجلة فصول، ص١٣٢، مجلد ٧, عدد ٣، ٤، ١٩٨٧م.

(٣) المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدلالة، د محمد العبد، ص١٥، دار الفكر العربي، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

(٤) عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، كمال أحمد غنيم، ص٢٣٧، مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٧م.

(٥) المفارقة في شعر المتنبي، د. عبد الهادي خضير، ص ٦١، مجلة كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، م٣٥،ع١، ٢٠٠٨م.

ويبدو من خلال التعريفات السابقة للنقاد العرب، أنهم اعتمدوا- في دراساتهم حول المفارقة - على الدراسات الغربية؛ إذ المفارقة – وإن كانت موجودة في الأدب العربي القديم كما أُشير- لكنها لم تكن بالصورة التي عليها الآن، كما يبدو أيضا اتفاق هذه التعريفات في الخطوط الرئيسة لمعنى المفارقة، والتي تتمثل في إدراك التناقضات (وبضدها تتميز الأشياء)، والحرص على إظهار الدلالات الخفية للنصوص، وأن السبيل إلى الوقوف عليها، وفهم المفارقة فهما كاملا، هو إدراك التنافر بين المعنى المباشر، والمعنى غير المباشر للنص.

كما تشير إلى أن المفارقة قد تدل على معنى، أو قد تطلق معنى ليس مرادا به إلا المعنى الظاهر أو المباشر، الذي يكون بمثابة القناع الذي يتخذه صانع المفارقة أو الأديب؛ ليخفي وراءه معنى آخر مستورا، ودليل القارئ في هذه اللعبة هو السياق، الذي يشير إلى الدلالة الخفية، ويؤكد أن المعنى الظاهر غير مقصود.

وإلى جانب السياق، تأتي مصطلحات، السخرية والتهكم والاستهزاء، وهي من العوامل، التي تؤدي إلى قلب المعنى إلى ضده، وتسهم في تغيير الدلالة إلى نقيضها في كثير من الأحيان.

فالمفارقة -كما رأيت -استثمار واع، لطاقات اللغة وإمكاناتها من خلال أسلوب فني بارع، يكسر أفق التوقع عند القارئ؛ ليثير لديه الشك والشغف، ويدفعه إلى التأمل في دلالات النص وتأويلاته، وسحبه من المعنى المباشر، إلى المعنى العميق للنص.

وظائف المفارقة:

لم تأت المفارقة في العمل الأدبي عبثا، أو لمجرد الزينة اللفظية، وإنما تأتي لوظيفة وغاية فكرية، يسعى إليها الأديب، فـ: "المفارقة هي ذرة الملح التي تجعل الطبق شهيا"، و" حياة بدون مفارقة غابة بلا طيور" [1]

وللمفارقة عدة وظائف وغايات، نستعرضها من خلال آراء بعض النقاد: فالمفارقة: " قد تكون جملة، وقد تشمل العمل الأدبي كله، وتتعدد

(١) المفارقة، نبيلة إبراهيم، مجلة فصول، ص١٣١، مجلد ٧, عدد ٣، ٤.

أشكال المفارقة وأهدافها، فقد تكون سلاحا للهجوم الساخر، وقد تكون أشبه بستار رقيق، يشف عما وراءه من هزيمة الإنسان، وربما أدارت المفارقة ظهرها لعالمنا الواقعي، وقلبته رأسا على عقب، وربما كانت المفارقة تهدف إلى إخراج أحشاء قلب الإنسان الضحية؛ لنرى ما فيه من متناقضات تثير الضحك " [١]، فأول هذه الوظائف كما ترى في القول السابق:

١- **السخرية:** من أهداف المفارقة السخرية؛ نظرا لأنها أحد الأدوات، التي تستخدمها المفارقة في مقاومة القمع والقهر الاجتماعي وغيره؛ إذ هي بمثابة التنوير للجماهير، والمتنفس الذي يذهب غيظ قلوبهم، الناتج عن شقائها ومعاناتها، وآمالها الضائعة، و: " يستخدم هذا الفن في التوعية الاجتماعية، والسياسية ضمن قاعدة شعبية- فلكلورية مشهورة: إذا كبرت مصيبتك اضحك عليها.. وهو ضحك مسئول، إذا جاز التعبير، فيه من البكاء المر ما فيه " [٢]

ولا شك في أن الأديب، لا يتوصل إلى المفارقة الساخرة؛ إلا من خلال سرعة البداهة، وحساسية الإدراك، ودقة الملاحظة، إلى جانب الخبرة والدربة بأمور الحياة، التي تصقل ذلك وتجوده.

٢- **الإصلاح:** فليست المفارقة مجرد كلام يبدو متناقضا، أو على غير مقصده الحقيقي، بل هي: " وظيفة إصلاحية في الأساس" [٣]

فهي تحرك ذهن القارئ وتدفعه؛ لتجاوز المعنى الظاهر؛ للوصول إلى الرسالة التي يريد الأديب إيصالها لقارئه؛ كي يعرف حقيقة العالم وجوهره، وبالتالي يتمكن من مسايرة الحياة، وفهمها والاستمرار فيها.

---

(١) المفارقة، نبيلة إبراهيم، مجلة فصول، ص١٣٢، مجلد ٧, عدد ٣، ٤.
(٢) نافذة مجلة الفجر الأدبي، علي الخليلي، ص ٧، عدد٤٤. القدس، أيار ١٩٨٤م.
(٣) ناصر شبانة: المفارقة في الشعر العربي الحديث، ص٧٤ .

٣- **الدهشة والإثارة:** وذلك لأن: " المفارقة بمفهومها الأدبي، صنعة لغوية، تستلزم مهارة فنية عالية، وقدرة على تحريك اللغة، وترك بعضها يرتطم ببعض؛ بما يحرك ذهن القارئ، ويزعزع قناعته، ويهدم يقينه، ويفكك نظامه المعرفي" (١)

ومن ثم فإن هذه الآثار الفنية، التي تصنعها المفارقة، تباغت القارئ، وتثير انتباهه وانفعاله، وتدفعه إلى التفكر والتأمل، الذي ينتج عنه في نهاية المطاف، المتعة والاندهاش والاكتشاف؛ إذ كلما زاد الاندهاش، كلما كان تعلق القارئ بالنص أمرا محببا ومثيرا؛ نظرا لما يشعر به من الطرافة، والتعرف المستمر لما هو غير مألوف.

٤- **عمق النص:** لاشك في أن ما تحدثه المفارقة في النص من زعزعة الثوابت لدى القارئ، وتحريكها للغة، أمرا محمودا يخرج النص من دائرة المباشرة والسطحية، التي تفقد النص قيمته: " فالمفارقة في دراسة النص غاية في الأهمية، ذلك أن دراستها تعني الولوج إلى مضامين النصوص ودواخلها، ومحاولة الكشف عن رؤية المبدع، وإخراج ما في النصوص من أبعاد المعنى وتجلياته" (٢)

وهذه الأبعاد التي تثيرها المفارقة في النص، لا تكون على حد سواء لدى القراء، فمنهم من يراها واضحة وضوح الشمس، ومنهم من تخفى عليه، كل على حسب ما يمتلكه من حذق ومهارة، فالقراء في ذلك متفاوتون، وهذا ما يزيد من رفعة النص وقوته، ويجعله مجالا لتردد القراء عليه.

ويمكن القول: إن المفارقة من التقنيات الفنية التي تثري النص، وتمنح صاحبه التميز والتفرد؛ لذا فهي تتطلب إحساسا خاصا، وموهبة فطرية، وقدرة على تصور الشيء ونقيضه معا، واختراق ظاهر الأشياء، والنفاذ إلى باطنها، كما أنها تجعلنا نشعر بأهمية دور القارئ، في الوقوف على الدلالات الخفية للمفارقة، وتنمية الحس القرائي لديه.

صور المفارقة في مقامات السَّرَقُسْطِي

---

(١) المفارقة في شعر المتنبي، د. عبد الهادي خضير، ص٦١.

(٢) المفارقة في الشعر الأندلسي، شعراء قرطبة نموذجا، نعيمة خالد عبد الرحيم، ص١٤٦، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، ٢٠٠٧م.

المبحث الأول: المفارقة اللفظية

أولا: لماذا المفارقة في مقامات السَّرَقُسْطِي [1]؟

تأتي مقامات (السَّرَقُسْطِي)؛ نتيجة طبيعية لعصره، الذي كان يعيش فيه، وهو عصر(ملوك الطوائف) بكل تقلباته، وانقساماته، وتناقضاته السياسية، والاجتماعية، التي يعيشها مجتمعه في القرن السادس الهجري، حيث حياة العبث، والترف، والمجون، التي طغت في بلاد الأندلس آنذاك، وصعوبة الحياة، التي كان يعيشها السواد الأعظم هناك.

أمام هذه التناقضات وقف (السَّرَقُسْطِي) متصديا، حيث أخذ يصور مظاهر الحياة هناك، من خلال صورة (المفارقة)، التي تسخر أحيانا، وتهجو أحيانا؛ لترفع الإحباط عن كواهل هؤلاء المهمشين، وتمسح ما بهم من قنوط، ذلك أن الظروف المتقلبة، التي مرت ببلاد الأندلس نتج عنها الفقر، والعوز، والبطالة، مما أدى إلى الشعور بالغربة، والقلق، وعدم الاستقرار.

هكذا وجه (السَّرَقُسْطِي) سهام نقده نحو شرائح مختلفة في مجتمعه، ممن رأى فيهم ملامح الفساد كالفقهاء، والحكام، والقضاة، وغيرهم: " وقد نقول في النهاية، إن المفارقة هي استراتيجية الإحباط، واللامبالاة، وخيبة الأمل، ولكنها- في الوقت نفسه- تنطوي على جانب إيجابي، فقد ننظر إليها على أنها سلاح هجومي فعال، وهذا السلاح هو الضحك،

---

(١) هو: محمد بن يوسف بن عبد الله بن يوسف التميمي المازني السرقسطي الأندلسي، أبو الطاهر، المعروف بابن الأشتركوني، وكنيته أبو الطاهر، سكن قرطبة، وسمع من شيوخها، كان رحالة في طلب العلم، ووزيرا، من الكتاب الأدباء. اشتهر بالإنشاء، وعارض (الحريري) في مقاماته، بخمسين مقامة سماها (المقامات اللزومية) التزم فيها مالا يلزم في النثر والشعر. مولده بسرقسطة، ووفاته كانت بقرطبة عام ٥٣٨هـ ينظر: الأعلام للزركلي، جـ ٧، ص١٤٩، دار العلم للملايين، ط ١٥، - أيار / مايو ٢٠٠٢م. بتصرف، وقال (ابن الزبير) في ترجمته: كان لغويا أديبا شاعرا، معتمدا في الآداب، فردا متقدما في ذلك في وقته، وعليه اعتمدت في تفسير الكامل للمبرد؛ لرسوخه في اللغة العربية، وشعره كثير، ومات بقرطبة يوم الثلاثاء ٢١، جمادى الأولى ٥٨٣هـ- أي في آخر عصر المرابطين، ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، ص٢٥٤، دار الشروق- عمان، ١٩٩٧م.

لكنه ليس الضحك الذي يتولد عن الكوميديّ، بل الضحك الذي يتولد عن التوتر الحاد، والضغط الذي لا بد أن ينفجر" [١]

فمجتمع (السَّرَقُسْطِي) مجتمع مليء بالتناقض، والتدليس، والوعود الكاذبة، والآمال الضائعة، وغياب العدل، وانتشار الترف والمجون، والفساد بين القادة، والقضاة، والفقهاء، ولا شك في أن مجتمعا كهذا، يقود الأديب إلى السخرية والتهكم والمفارقة؛ نظرا للشعور بالعجز أمام طبقة القادة، والأمراء، والقضاة، والخوف من سطوتهم، فكانت المفارقة السلاح الفعال، والطريقة المثلى؛ حتى تعود الأمور إلى نصابها.

ثانيا: المفارقة اللفظية: ويقصد بها: " شكل من أشكال القول، يساق فيه معنى ما، في حين يقصد منه معنى آخر، غالبًا ما يكون مخالفا للمعنى السطحي الظاهر.." [٢]

فالمفارقة اللفظية– كما ترى- ليست مجرد تضاد بين لفظين أو تقابل بين معنيين فأكثر، وإلا لصار كل تضاد لفظي- كـ(الحر والبرد) مثلا- مفارقة، وبالتالي فالمفارقة اللفظية هي: لفظ ضد السياق، وضد المعنى الحقيقي أو المراد، وليست – في حدود علمي- كما ذهب بعض الدارسين إلى حصر المفارقة اللفظية في الطباق والمقابلة، أو التضاد اللفظي، كذكر الليل والنهار، والقريب والبعيد، والقوي والضعيف، وما شابه ذلك من ألفاظ، يؤتى بها للتحسين الشكلي، بل المفارقة أعمق من ذلك بكثير، ولعلك تذكر في بداية هذه الدراسة، حديثي عن معاني المفارقة عند النقاد، وكان من أهمها السخرية والتهكم، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وعكسه، كأن يطلق الأديب لفظا نحو الشجاع، وهو يقصد الجبان، أو الصادق، ويريد به الكاذب، على نحو ما يحدد ذلك السياق ويبينه؛ لذا كان من مقاصد المفارقة الدعوة إلى رفض المعنى الظاهر، وملاحظة القارئ إلى مقصدها المراد.

---

(١) المفارقة في القص العربي المعاصر، سيزا قاسم، مجلة فصول، ص ١٤٣وما بعدها، مجلد٢، عدد ٢، ١٩٨٢م.

(٢) المفارقة في القص العربي المعاصر، سيزا قاسم، مجلة فصول، ص ١٤٤وما بعدها، مجلد٢، عدد ٢، ١٩٨٢م.

والمفارقة اللفظية:" تكون حين يؤدي الدال والمدلول نقيضين أحدهما قريب نتيجة تفسير البنية اللغوية حرفيا، والآخر سياقي خفي يجهد القارئ في البحث عنه " (١)

وبالتالي فثمة اختلاف بين المفارقة، والمقابلة في طبيعة البناء والوظيفة: " فهي تبرز التناقض بين طرفين متضاربين، قد يمتد ليشمل القصيدة كلها، فتقوم على مفارقة تصويرية كبيرة " (٢)

ومن أهم هذه المفارقات اللفظية في مقامات (السرقسطي)، مُسَمى (أبو حبيب)، فحينما يقرع سمعك هذا الاسم، أو تلامس حروفه عيناك، فإن النفس تمتلئ بهجة، وطمأنينة، وسكينة؛ وذلك لأنه يمنح الآخرين انطباعا طيبا، وقبولا ومودة، لكن سلوك (أبي حبيب) يتناقض تماما مع اسمه، فهو حبيب الاسم، بغيض السلوك، ماكر، مخادع، محتال، فاسمه قناع أعده الكاتب بعناية ومهارة؛ ليواري خلفه داهية وليس حبيبا، ومن ثم تتحقق فيه المفارقة اللفظية.

ومن المفارقات اللفظية أيضا، مُسَمى (السائب) وهو اسم على غير مسمى، ترى ذلك في قوله: **" فتأملته وتأمل: فخفف قدمه إلي وأعمل، فقلت: أبا حبيب، أفي الليل الغريب؟ فقال مرحبا بك يا سائب، أعلمت أنك حبيس وأني سائب "** (٣)

فلفظة (السائب) ليست مراده على سبيل الحقيقة، فهو ليس سائبا كما تظن، بل في كل مرة يقع في فخ (السدوسي)؛ فيصير حبيسا لا سائبا؛ الأمر الذي استفز(حبيب) ولد (السدوسي)، وأخذ ينكر عليه، ويسخر منه قائلا: **" يا عم يا سائب، حبيس لا سائب، ألم تعلم مكائد الشيخ ومراصده، ومذاهبه ومقاصده؟ أليس قد لدغك من جحر مرارا، ولقيت من دهرك إحلاء وإمراء؟ هو أبو حبيب، وأنا ابنه حبيب لا عسيب "** (٤)

---

(١) المفارقة في قصص بدر عبد الحق دراسة أسلوبية، نبيل مشهور محمد العمري، ص ٥٣، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، ٢٠٢٠-٢٠٢١م.

(٢) عن بناء القصيدة العربية الحديثة، على عشري زايد ، ص١٤٧-١٤٨.

(٣) المقامات اللزومية، ص٣٨٠.

(٤) المقامات اللزومية، ص ٣٩٥.

ومن ثم يظل (السائب) دائما متوجعا متألما، لا تنفع معه خبرة، ولا دربة، ولا تجربة سابقة، وبالتالي يستجيب لـ(لسدوسي) في كل مرة، ويسير ورائه؛ لدرجة تستفز القارئ وتضحكه، ولكنه ضحك كالبكاء.

ومن ذلك أيضا ما تراه في قوله (للسائب): **" ألست أبا الغمر ذا الشأن والأمر....."** [1]، فقوله: (ذا الشأن والأمر) فارقت معناها الأصلي أو المتداول، الذي يستخدم للدلالة على معنى التقدير، والتعظيم، والاحترام، إلى معنى التحقير والاستهزاء؛ لتكتسب أبعادا دلالية جديدة، تنسجم مع السياق الذي وردت فيه، فهو كما ترى ساق معنى وأراد به آخر، حيث أراد الذم في صورة المدح، كما يحدد ذلك السياق ويقرره.

وبالتالي فالمفارقة -هنا- لم تقم على التضاد المباشر، كما يحدث في الطباق والمقابلة، وإنما قامت على التخلص من المباشرة والحرفية، والغوص في المفاجأة، والإثارة، والتشويق، ودفع القارئ للبحث عن أغوار المقامة.

وتأتي المفارقة اللفظية أيضا في قوله: **" يا أبا الحارث يا أسامة ..فأين منك الأناةُ والسياسة، مهلا يا أمير السباع، يا عزيز الرباع.."** [2]

فيطلق لفظ الأسد في قوله (أبا الحارث، يا أسامة)، وليس مقصودا به أسد الغابة الذي نعرفه؛ إذ الكلمة هنا فارقت معناها المعهود لأسد الغابة، إلى كل حاكم فرط في شعبه وأرضه(ملوك الطوائف)، وقد نصت القرائن السياقية على وجود المفارقة اللفظية، وفرضت على القارئ إعادة تفسير المقامة بما ينسجم مع رؤية الأديب، والوقوف على ما سكت عنه، وذلك هروبا من الرقيب، وتجاوزا للنمطية، والتقريرية المباشرة.

---

(١) المقامات اللزومية، ص١٩٣.
(٢) المقامات اللزومية، ص٣٦٤.

ولا شك في أن استخدام (السرقسطي) لأساليب المراوغة والتحايل، بهذه الطريقة استخدام مقصود؛ ليوسع دائرة الاحتمالات أمام المتلقي؛ فيجد الأخير نفسه حائرا بين هذا وذاك، مما يجعله يبحث عن منافذ توصله إلى إدراك مقاصد الأديب، والكشف عن المعرفة، التي تتوارى خلف الكلمات.

وصفوة القول إن المفارقة اللفظية، نمط من أنماط المفارقة، تعبر عن رؤية المبدع، وتقدم المعنى بأسلوب غير مباشر، وهي نقيض ما يبدو للقارئ على المستوى السطحي للكلام، وبالتالي فهي تدعو إلى التفكر والتأمل، والخروج من دائرة المسلمات.

كما يلحظ القارئ اجتماع المفارقة اللفظية، مع غيرها من أنماط المفارقة، كما في المقامة السابقة التي اجتمعت فيها المفارقة اللفظية، مع المفارقة التصويرية، أو المفارقة اللفظية مع المفارقة الساخرة، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

المبحث الثاني: مفارقة السخرية:

للأدباء طرقهم المختلفة في التعبير عن آرائهم وأفكارهم تجاه مجتمعاتهم، وما يحيط بهم من قضايا ومشكلات، فالبعض يعبر عنها صراحة، وقد يهرب منها بلباقة، والبعض الآخر قد يعبر عنها بشيء من التهكم والسخرية، ولقد كان (السرقسطي) ممن يسيرون على هذا النهج، وهو التعبير عن مشكلات مجتمعهم، وقضاياه بطريقة ساخرة ومتهكمة.

والسخرية في الأدب: " هي العنصر الذي يحتوي على توليفة درامية من النقد والهجاء والتلميح، والتهكم والدعاية، وذلك بهدف التعريض بشخص ما أو مبدأ أو فكرة أو أي شيء، وتعريته بإلقاء الأضواء على الثغرات، والسلبيات وأوجه القصور فيه" (١)

ومن ثم تتعدد المعاني والدلالات، التي تدور في فلكها المفارقة الساخرة أو المتهكمة، ويأتي ذلك تبعا لغرض المتكلم أو الأديب، فقد يعنى بها الذم في صورة المدح، أو: " توجيه إهانة في كياسة أو أدب.. كالاستخدام التهكمي لألقاب مثل (السيد) أو (السيدة) أو فخامتكم ونحوها، لأناس لا تصلح لهم مثل هذه الألقاب، أي ليسوا أهلا لها على الإطلاق " (٢)

وترى ذلك واضحا في قول (السرقُسطي) وهو يسخر من بطله وراويه (السائب) قائلا: **" ألست أبا الغمر ذا الشأن والأمر....."** (٣)

بنى (السرقسطي) –كما تلاحظ- هذا النص على تنافر دلالي، يبعث الإثارة في نفس القارئ، بحيث تمثل المستوى الأول المباشر في قوله (ألست أبا الغمر) فكلمة الغمر بالضم أو الفتح تعني من لم

(١)موسوعة الإبداع الأدبي، د نبيل راغب، ص ١٧٩، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١، ١٩٩٦م.
(٢) المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدلالة، د محمد العبد، ص٥٣.
(٣)المقامات اللزومية، ص١٩٣.

يجرب الأمور، كما تعني أيضا (الكثير) ويحدد ذلك سياق النص، وهو هنا كبير المقام.

أما المستوى الثاني: غير مباشر وقد حمل سخرية لاذعة لـ (السائب)، وذلك في قوله (ذا الشأن والأمر)، فهو يقول ذلك من واقع تهكمه، وتلاعبه به في كل مرة؛ لذا تشيع في المقامات سخرية (السدوسي) من الضحية (السائب)؛ نظرا لأنه لا يعتبر ولا يكاد يعرف إلا بعد فوات الأوان، أو بعد أن يسبق السيف العذل، ومن ثم يدعوه في مواضع كثيرة بقوله: يا (أبا الغمر)، ومن ذلك ما جاء في المقامة الخامسة، التي كان يستجدي فيها الناس، فبعدما انثالت عليه العطايا والهبات، استعان بـ(السائب)؛ ليحمل معه العطايا، فقال له: " **أعن أخاك وأباك، فقد اختارك واجتباك، وستحمد عونك وتملأ جرابك وأونك، فخرجت معه إلى الريف.. فحسر عن لثامه متبسما، ونظر إلي متوسما، وقال لي يا أبا الغمر، أغمس يدك في هذا النائل الغَمْر، كيف رأيت الرزق واجتلابه، ومريه واحتلابه؟ قال: فملأت يدي وفرا، وقلت اللهم غفرا، فقال لي أنت منجد وأنا متهم، ومهما لقيتك فإني لك مسهم... ثم أنشد قائلا: "**

انـــا السدوســـي حقـــا فـــي البـــر والبحـــر اســـري

طـــورا حزينـــا وطـــورا اخـــا ثـــراء ويســـر (١)

فالسائب يسير معه، ويحمل له الهدايا والعطايا وهو لا يعرفه، وهكذا في كل مرة، لا يشعر به؛ لذا ترى (السدوسي) يخاطبه ساخرا يا أبا الغمر، يا عديم الخبرة، ثم يخلع لثامه ويبتسم إليه، ولسان حاله يقول كيف لا تعرفني؟ وقد خدعتك مرات ومرات؟!! كما يتوعده بكثرة الكلام والخداع قائلا: (ومهما لقيتك فإني لك مسهم) أي مسهب في الأقوال والأفعال، ومع ذلك لا يأخذ السائب حذره، وفي كل مرة يقع في شرك السدوسي.

(١) المقامات اللزومية، ص٥١-٥٢.

وفي المقامة الثامنة، ظل (السائب) طوال الليل يراقبه؛ حتى يعرف حقيقته، فلما أصبح الصباح، كانت المفاجأة؛ إذ وجد نفسه مقيدا بالحبال: **" فبت تلك الليلة أراقبه، وأداوله في العبادة وأعاقبه، وقد انثالت عليهم التحف والهبات، وجن الليل، فحال بيني وبينهم السبات، فلما أصبح وجدتني مقيدا بحبال، مزملا في كساء بالٍ، وأمامي رقعة فيها:**

إيــه يــا ابــا الغمــر اخــا الاخيــار لا بــد للثــور مــن الانيــار

هــل كنــت ذا شــوق إلــى ازديــار كيــف رأيــت نغمــة الأزيــار

....فعلمت أنه كيد سدوسي....." [1]

فهو كما ترى يسخر منه ويتهكم به، مكررا لكلمة (الغمر)، كما أنه لا بد له من قيد كالثور، الذي لا بد له من النير، وهي الخشبة التي تعترض رقبته، وذلك على سبيل التهكم والسخرية منه.

ومن صور المفارقة الساخرة، التي تتعلق بازدراء (السائب) والسخرية من هيئته قول (أبو حبيب) للسائب:**" خبر ذائع، وخَب هازل، وعود بازل، من أين يا أشعث، أو يا أشعب كلا أمريك أشد أو أصعب.. لقد اجترأت على الملوك.. وأنت أخو الصعاليك سموت إلى ذوي الرتب والمماليك .."** [2]

ثم تراه يتلاعب ويستخف به، وذلك حينما أمره بالجلوس والانتظار في المقامة نفسها، حيث يبدو في ظاهره الاحترام والتوقير (للسائب): **" امكث هنا قليلا؛ حتى أريك جليلا، وأقود إليك سابحا ونجيبا.. ثم تتبوأ القصر المشيد، وتخلف المأمون أو الرشيد.. فما شعرت إلا بالقوم وقد أخذوني.. والأكف لا تكف، واليمين تصفع، والشمال لا ترفع، ولا قول لي يسمع "** [3]

(١) المقامات اللزومية، ص٨١.
(٢) المقامات اللزومية، ص١٨.
(٣) المقامات اللزومية، ص٢٠.

هكذا –كما ترى- بنى مقامته على تضاد دلالي حاد، بغية الوصول إلى ذروة المفارقة الساخرة، وهذا ما يظهر من خلال سرده لهيئة (السائب) وأوصافه الساخرة في أول المقامة، بحيث يجعل القارئ يتفاعل مع نصه في الوهلة الأولى، فبعدما سخر منه ومن هيئته، عاد ليرفعه إلى مصاف الملوك والخلفاء، ثم يأتي بما لا يتوقع، فيكسر أفق التوقع عند القارئ و(السائب)، فيسخر منه ويستخف به ويهينه، من خلال هذا المشهد الدرامي، الذي يثير الضحك لدى القارئ (والأكف لا تكف، واليمين تصفع، والشمال لا ترفع..)، والبكاء المرير، لدى الضحية المسخور منها.

وقد تأتي المفارقة الساخرة عبارة عن: " نوع من التأليف الأدبي، أو الخطاب الثقافي الذي يقوم على أساس الانتقاد للّرذائل، والحماقات، والنّقائص الإنسانية، الفردية منها والجمعيّة، كما لو كانت عملية الرصد، أو المراقبة لها، تجري هنا من خلال وسائل وأساليب خاصة في التهكم عليها، أو التقليل من قدرها، أو جعلها مثيرة للضحك، أو غير ذلك من الأسباب الّتي يكون الهدف من ورائها، محاولة التّخلص من بعض الخصال والخصائص السلبيّة" (١)

ومن مظاهر تلك الصورة في مقامات (السرقسطي) ما جاء في مقامة (الدب)، التي يصور فيها البطل الشيخ المحتال، يتكسب من ترقيص دب له، ومداعبته، والناس من حوله مجتمعون، يقول: **" فإذا بشخص مزمل في كساء، بين صبية ونساء، يعدو ويرقص، ويزيد في حديثه وينقص، وإذا في يده سلاسل، وحيوان كريه المنظر باسل، يَرقُصُ برقصه، ويتوقع مواقع زيْده ونقصه، وقد شحا فاه بعود، وأخذ في هبوط من اللهو وصعود، وهو يقول: اسمعوا ما قال أبو رُبّاح ذو اليسر والرَّباح، الذي ليس له زئير ولا نباح، ولا نسيم ولا عواء ولا ضُباح... عدو النحل، وأسير الوحل "** (٢)

(١) الفكاهة والضحك، (رؤية جديدة)، د. شاكر عبد الحميد، سلسلة عالم المعرفة، ص٥١، عدد ٢٨٩، الكويت، ٢٠٠٣م.
(٢) المقامات اللزومية، ص٣٣٠.

فالكاتب - كما تلاحظ- في مقامته هذه، يكشف من خلال المفارقة الساخرة جانبا مهما، من جوانب الظواهر السلبية في المجتمع، فيشير إلى الانتكاس، أو تبدل القيم في مجتمعه، حيث صار الأديب، أو العالم يتسول، أو يمتهن عملا، لا يليق بمكانته العلمية والأدبية؛ لكي يسد رمقه.

ومن ثم فإن الكاتب من خلال هذه النظرة النقدية الساخرة، يعرّض بطبقات الأمراء والسادة -في عصره- الذين يعيشون في لهو وترف، ولا يلتفتون إلى أولئك الذين يكدون على حساب كرامتهم، ومكانتهم العلمية والأدبية؛ ابتغاء الحصول على لقمة العيش؛ ذلك أن العلماء لا يجدون تكريماً لعلمهم؛ نظرا لتبدل القيم، واختلال الموازين في مجتمعه؛ حتى صارت قيمة المرء بما يملكه، وليس بما يحسنه.

كما تصور المفارقة أيضا، انصراف الناس عن الجادة وعظائم الأمور، وإقبالهم على الهزل والسخف، وتوافه الأشياء، ولا شك في أن المفارقة الساخرة هنا، تمتلئ أسى ومرارة، على الرغم من ظاهرها الضاحك.

ترى ذلك أيضا في مقامته (الجنية)، التي يصور فيها البطل، وقد انتحل مهنة (الطب والكهانة) معاً، فهو يداوي فتى أصابه المرض وأنهكه، يقول الراوي في وصف الفتى: **" والشق مائل، والزبد من فمه سائل، والذراع فتلاء، والمقلة قبلاء، والريق قد عصب فاه، والكرب قد وفّاه وما وفّاه، ولما اضطرب وتخبط، تكنفه الشيخ وتأبط، وأمسك بيده ورأيه، وتوقع من بؤسه أو بأسه، والناس قد تطاولوا من مُحاله، وتعوذوا من سوء حاله.."** [1]

فكما ترى يداوي الفتى المريض، وعندما يخفق في مداواته، يلجا إلى عالم الجن، مستعينا بالعزائم في تخفيف آلام مريضه، فيقول مخاطباً الجن: **" يا مارد سهمك صائد، يا مريد ماذا تريد، ما أطغاك ما**

(١)المقامات اللزومية، ص٤٢٦.

أعصاك، ما أبعدك عن الخير وأقصاك، أُخرج يا واغل، فإنك شاغل، ابعُد يا خاتل فإنك قاتل " (١)

فمن خلال هذه المفارقة الساخرة، التي يتنكر فيها بزي طبيب عراف، لديه القدرة والمهارة في مداواة المرضى، وانتشالهم من الهلاك والأوجاع، لكنه في الحقيقة لا يستطيع ذلك، بل يلبّس على الناس، ويستخف بهم من خلال الدجل والشعوذة، فتراه يخاطب الناس، معلناً عن مهارته وحذقه فيقول منادياً: **" أيها الناس عندي في هذا الشأن سرائر، وخبايا من الحكمة وضمائر، أخذتها عن العلماء، ولُقِّنْتُها من الحكماء، أين من شكا من هذه الأعراض؟ أين من رمي من هذه الأغراض؟ أين من لحقته آفة؟ أين من برحت به علاقة أو شأفة؟ أين من خامرته الأشواق والوساوس؟ ولعبت به الأجراس والوساوس، أين من سحره ساحر، أو دحره داحر؟ أين من لصقته عين أو رهقه دين؟ عليَّ الضمان، وأنا الزعيم، وله النعيم"** (٢)

ومن ثم أقبل عليه الناس بالدينار والدرهم، وسألوه عن كل معضل، فأوسعهم حدْسا ورجما، فـ(السرقُسطي) من خلال هذه المفارقة الساخرة، ينتقد من طرف خفي سلوك العراف المخادع، الذي يستخف بعقول الناس، ويتظاهر أمامهم بأنه طبيب حاذق، يستطيع شفاء المريض، وهو في الحقيقة مغرور مخادع، يحاول أن تنطلي أكاذيبه على الناس؛ ليحتال على أموالهم، فهو لا يريد أن ينال الرزق عن طريق ما، وإنما ضعفت همته، فغدا يلتمسه، بواسطة الكدية والاحتيال، والكذب والادعاء.

ومعلوم أن الطبيب في عرف الناس، ملاك رحمة يداوي المرضى، ولا يستغل ضعفهم وحاجتهم، ومع ذلك فلم يكن الأطباء جميعا علي نفس درجة النقاء، بل تبني بعضهم الغش والخداع، والاحتيال علي البسطاء والمحتاجين من أفراد مجتمعهم، الذين يحتاجون إلى مساعدتهم، لا لشيء، سوي جمع المال منهم، مقابل أدوية لا تنفع ولا تفيد، بل ظهر زيفها كما أشارت إلى ذلك المقامة اللزومية.

---

(١) المقامات اللزومية، ص٤٢٦.

(٢) المقامات اللزومية، ص٤٢٧.

كذلك ينتقد (السرقسطي) بطريقة غير مباشرة، سذاجة الناس وجهلهم، وإقبالهم على الدجالين والمشعوذين، واعتقادهم في الخرافات والأساطير، والمفارقة الساخرة هنا –كما تلاحظ- ليست للتشفي، بل هي دعوة للتفكير، وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

وقد تأتي المفارقة الساخرة بمفهوم آخر، وهو ذلك النوع الذي يبنى: " على موقف يناقض ما ينتظر فعله تماما، إذ يأتي الفعل مغايرا تماما للوجهة، التي يجدر بالإنسان أن يقوم بها، كأن يكون رد فعل من اغتصب حقه -مثلا- الرضا بالذل، والدفاع عنه وتسويغه، فتأتي الصورة كاشفة بعد المفارقة " (١)

ويظهر هذا النوع من المفارقة في معظم مقامات (السرقسطي)، وتحديدا في تلك المواقف التي تجمع (السائب) بـ(أبي حبيب السدوسي)؛ إذ يكسر الأخير أفق التوقع دائما، فيتفاجأ القارئ، ويتفاجأ (السائب) هو الآخر من مكر (أبي حبيب السدوسي) وخداعه، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، وأذكر منها قوله لـ(السائب): **" امكث هنا قليلا؛ حتى أريك جليلا، وأقود إليك سابحا ونجيبا.. ثم تتبوا القصر المشيد، وتخلف المأمون أو الرشيد"** (٢)

فالمنتظر من (السدوسي) هنا، أن يكرّم (السائب) بعد هذا الانتظار الموعود بالعطاء، كما في قوله (حتى أريك جليلا)، وخاصة بعدما ما قدمه له من مساعدات في حمل الهدايا؛ لكن المفاجأة والمفارقة أن سلوك (السدوسي) جاء مغايرا تماما لما ينتظر منه، وما ينبغي عليه فعله، حيث كانت النتيجة، كما جاء على لسان (السائب): **" فما شعرت إلا بالقوم وقد أخذوني.. والأكف لا تكف، واليمين تصفع، والشمال لا ترفع، ولا**

(١) فضاءات الشعرية، دراسة في أعمال أمل دنقل الشعرية، سامح رواشدة، ص ١٨، المركز القومي للنشر، أربد،١٩٩٩م.
(٢) المقامات اللزومية، ص٢٠.

قول لي يسمع " [1]، فالفعل مضحك، ومبكي، وساخر، ومتناقض، وغير متوقع تماما، فالأكف لا تكف، واليمين تصفع، والشمال لا ترفع.

وترى ذلك أيضا حينما دعا (السائب) (السدوسي) إلى التوبة، والإقلاع عن خداع السذج والبسطاء، والدجل والشعوذة، يقول: **" أبا حبيب حييت من حبيب، لقد أمعنت في المحال، وأغربت في الانتحال، وموهت على الجن، وادعيت كل ضرب وفن، العود أحمد، ومثلك يحمد، وما أحسن الوفاء، وأسمج الجفاء، وما أقبح العذر.."** [2]

فكما ترى –يذكره بقبيح الفعال وعواقبها الوخيمة، كما يدعوه إلى العودة إلى حميد الفعال، والوفاء بالوعد، وبالتالي فمن المفترض أن يكون رد فعله الاستجابة، والإقلاع عن السلوكيات المشينة، لكن المفاجأة والمفارقة " قال فنظر إلي وقال:

تـــرْك الوفـــاء وفـــاء وايـــن منـــك الصـــفاء؟
كَلفـــتَ بـــالبر دهـــرا حتـــى اســـتفاض الجفـــاء
نفســـي الفـــداء لحَـــر ومـــا لحـــر كفـــاء
قـــد كـــان يُقتـــع مثلـــي مـــن الوفـــاء اللفـــاء

فكان الرد غير متوقع، ومغايرا لما ينتظره منه (السائب)، وعلى عكس ما يراه الناس؛ إذ يرى أن عدم الوفاء والالتزام هو الوفاء نفسه، وأنه فعل الخير زمانا، حتى جفته نفسه، وأنه كان يستجيب لمجرد التذكر.

وترى المفارقة الساخرة واضحة، وذلك حينما اطمئن إليه (السائب) فأعطاه صرة لؤلؤ؛ صونا لها من الضياع أو السرقة؛ لكن المفارقة أن يأتي الخطر من مظنة الأمن، ومن مكان غير متوقع؛ فحينما استولى

(١) المقامات اللزومية، ص٢٠.
(٢) المقامات اللزومية، ص٤٣٠.

النوم على (السائب) شرع (السدوسي) في التسلل والهروب بالصرة، تاركا رقعة يوضح له فيها أنه فخ قد نصب له، ويعترف فيها بحيله ومكائده، فيخاطب السائب قائلا:

سـخوتَ بـاللؤلؤ النثيـر وجـدت بالفـاخر الأثيـر

إلـى متـى أنـت فـي غـرور مـن باحـث للـردى مثيـر

غـرك مـن صـاحب رقـاد علـى فـراش لـه وثيـر

وقـد نهـاك الزمـان عنـي لـو كنـت تصـغي إلـى النـذير[1]

فالسدوسي كما ترى يتعجب من اطمئنان (السائب) له بالرغم من معاودة خداعه، والاستخفاف به، فلما أصبح ولم يجد صرته قال: " فعلمت أنه الشيخ الناد، والعاسي [2] المنآد،.فتهاتف أهل المكان وقالوا: قد علمنا أنك صيده الليلي، ومكره الحولي.. كم وراءه من شاك وباك، ومتقلب من خدعه في حبائل وشباك، قال: فتعزيت تعزي البائس ورجعت بحظ البائس " [3]

وتزداد المفارقة عمقا حينما تعلم أن (السائب) رغم المعاناة، التي لاقاها من (السدوسي)، يعجب به، ويحبه ويأنس به، ويثني عليه؛ إذ كان المتوقع أن يبغضه ويعاديه ويوقع به، لكن المفاجأة أن يسوغ أفعاله ويبررها ويمدحه قائلا: **" فإنه كان عذب الخلائق، رحب الطرائق، سهل الألفة، بعيد الكلفة، يمتزج بالنفس امتزاجا، ويكون لها طبيعة ومزاجا، ولقد رزئت المال وسلبت الجمال، فما وجدت كوجدي لفقده، وإن كان خاس بعهده وعقده، فما أزال أقفو أثره، وأتعلل بما نظمه ونثره.."** [4]، فكما رأيت

(١) المقامات اللزومية، ص٢٠٣.
(٢) العاسي: الجافي
(٣) المقامات اللزومية، ص٢٠٣-٢٠٤.
(٤) المقامات اللزومية، ص٢٠٣.

جاءت المفارقة بما لا يتوقع، حيث تعاطف (السائب) مع (السدوسي) رغم سلوكه المشين معه، وسخريته منه.

ومن هذه الصورة أيضا ما جاء في المقامة (الطريفية)، فترى الابن الناسك العابد، والشجاع المقدام، هو الذي يخون أباه الملك، حين تستبد به شهوة السلطة والحكم: **" حدثني جد أبي عن جده، يرفعه إلى تسعة من عده، أنه كان بهذه الخطة قصر منيف، وكان له ابن عنيف، يولع بالفتاك، ويُعنى بالهتاك، وآخر يُعد مع النساك، ويشار إليه بالعفاف والإمساك، فبينا أبوه قد ضاق به ذرعا.. أسر في ارتغائه حسوا، ورسا على حب الجاه رسوا، فاغتال أخاه بالسوء وتوخاه.. فما كان إلا أن غدر ذلك الناسك بأبيه، وأخفاه، وطواه، ونفاه، واستولى على ملكه ونظمه في سلكه، ونهض بالأمر واستقل، وما احتقر منه ولا استقل، حتى اطمأن له الملك وانقاد "** (١)

اتخذ (السرقسطي) في هذا النص من المفارقة سبيلا؛ للتعبير عن الوضع المتأزم، الذي يعيشه الناس في عصر ملوك الطوائف، حيث الصراع على السلطة، دون أدنى اعتبار لمصالح البلاد والعباد، فهو - كما ترى- يضع القارئ أمام هذا التضارب في الدلالة، بقصد الانتقاد الساخر واللاذع، للوضع في بلاده ومجتمعه، والمتأمل في النص أو المقامة، يجد المفارقة تأتي بما لا يتوقع، أو بما يغاير المراد تماما، فهو يتحدث عن ملك انقلب عليه أحد أولاده، أحدهما جرئ فتاك مولع باللهو، والآخر من العباد الزهاد، فكان من المتوقع أن من ينقلب على أبيه، ويستولي على السلطة هو ذاك الفتاك الماجن، لكن المفاجأة والمفارقة، أن الذي انقلب على أبيه وقام بخيانته، هو ذاك الناسك العابد.

كما تحتوي المقامة على مفارقة أخرى غير متوقعة، وهي أن المنتظر من الابن تجاه أبيه، أن يقف بجواره وأن يعاونه، وأن يكون امتدادا له، لكن الرياح تأتي بما لا يشتهي السَفِنُ، فيخون الابن أباه، ويعزله وينفيه، ويستولي على السلطة.

(١) المقامات اللزومية، ص٤٠٢-٤٠٤.

وفي المقامة (البربرية) يزور(السائب) مدينة طنجة في شمال إفريقية، فيصور طبيعة مجتمع البربر وعاداتهم، وهناك تبدو المفارقة المتهكمة واضحة، يقول: **" فأقمت بين أقوام كالأنعام أو كالنعام، وأناس كالسباع أو الضباع، لا أفقه مقولهم، ولا يوافق معقولي معقولهم، قد فارقت القوم زيا ولفظا، فصرت بعد نطقي إلى الخرس، وقنعت من الصهيل بصلصلة الجرس، كأني أصاحب البهائم، أو أسيم السوائم، غير أنها لا تنقاد ولا تسالم، ولا تعاقل، ولا تحالم.."** (١)

فأنت تلاحظ تصويره المشوب بالاستعلاء، والعنصرية تجاه البربر، ذلك العرق الذي كان يمثّل عنصًرا أساسيّا من عناصر المجتمع الأندلسي، وعلى الرغم مما قّدمه هؤلاء البربر (للسائب) من إكرام وحسن ضيافة، كان من المتوقع أن يثني عليهم، وأن يرد الجميل بمثله، لكنه كسر أفق التوقع عند القارئ، فجاء فعله مغايرا تماما للوجهة، التي يجدر بالإنسان أن يقوم بها، ولعله يوجه من خلال المفارقة، نقدا لاذعا وساخرا، لحكام الأندلس المرابطين البربر، الذين فرطوا بالبلاد.

ويتضح للباحث من خلال ما سبق، أن ثمة تشابه كبير في البنية، بين المفارقة الساخرة، والمفارقة اللفظية: " فلئن كانت المفارقة اللفظية، تقوم على إدراك التنافر بين المستوى السطحي، والمستوى العميق، فإن هذا شأن المفارقة الساخرة في غالب الأحايين، ومن ثم نستطيع القول إن كل مفارقة لفظية قد تستدعي سخرية، وربما توحي إليها، بيد أن ليس كل سخرية تتضمن تناقضا أو تنافرا دلاليا، فكثيرا ما تكون في صور كاريكاتورية أو ما شابه ذلك " (٢)

(١) المقامات اللزومية، ص٣٨٥.
(٢) جماليات المفارقة الساخرة في النص الشعري العربي المعاصر، جريو خيرة، ص٩١، جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس - كلية الآداب واللغات والفنون- الجزائرية، م٤، ع١١، ٢٠١٧م.

ومن الجدير بالذكر أن المفارقة الساخرة لدى (السرقسطي)، تبتعد عن معنى الهزل والابتذال، وليست السخريّة غاية بحد ذاتها؛ إذ تأتي وسيلة للبلوغ إلى مقصد سام ونبيل، وبالتالي فهي أداة تعبيرية قوامها تقويم الاعوجاج.

كما يمكن القول: إن المفارقة الساخرة تتعدد أشكالها ومظاهرها، فقد تكون هجوما متعمدا تجاه إنسان من خلال إهانته والتقليل من شأنه، أو انتقادا لظاهرة ما، أو تعريضا بالتناقضات التي يعايشها الأديب، بأسلوب يبتعد عن التعبير الصريح المباشر، وقد تأتي ردا لفعل غير متوقع، فهي وسيلة للتهكم أو الهجاء، الذي يظهر فيه المعنى بعكس ما يظنه المتلقي.

المبحث الثالث: مفارقة الشخصيات:

لا شك في أن الشخصية هي التي تولد الحدث وتحركه في العمل المقامي، كما أنها تؤدي دورا مهما في تجسيد فكرة المقامة، والشخصية في مقامات (السرقسطي) تتغير من مقامة إلى أخرى, بمعنى أن المفارقة التي تصنعها الشخصيات فيما بينها، هي غالبا ما تكون خاضعة للموقف أو السياق الذي تتناوله المقامة، فشخصياته مرة تسمو إلى درجة عالية من الأخلاق والدين والعلم، ومرة تأتي متناقضة، على عكس ذلك تماما.

أولا: **شخصية أبي حبيب السدوسي:**

حينما تدقق النظر في مقامات (السرقسطي) تجد أن شخصية (أبو حبيب السدوسي) هي الشخصية الرئيسة التي يعول عليها في مقاماته؛ إذ هي شخصية تجيد تقمص الأدوار المتناقضة، شخصية متشعبة كثيرة المواقف والمسالك، يساعده في ذلك أولاده (حبيب، غريب)، فتراه يتخفى في صورة الواعظ التقى، فيسرق أمتعة المصلين **وأموالهم " إنه صلى معنا العشاء، وأتى من حسن القول بما شاء، فعطف منا معاطف وجوانب، وأسال منا متالع ومذانب**[1]**، وزعم أنه في غد راحل، وأن سوف تطويه المراحل، وسأل المبيت في المسجد، مع كل متهم مثله ومنجد، فأكرمنا عشاءه ووصلنا رشاءه، وأرحنا من نصبه وعيه، وقمنا بشبعه وريه، فلما أصبحنا لصلاة الصبح، عثرنا من أمره على قبح، ووجدنا من كان معه قد سلبه ريشه، وثلل عريشه، وأوقع بينهم الظنون والتهم، وألبس عليهم أمرهم وأبهم.."** [2]

فالنص المقامي هنا يحمل تناقضا واضحا، بين سلوك الشخصية وقولها، ولعل (السرقسطي) أراد من خلال هذه المفارقة؛ كشف

(١) متالع اسم جبل، ومذانب جمع مِذنب، وهو مسيل الماء، أو جدول ماء، والمعنى أن حسن حديثه، وجميل وعظه حرك قلوبا كالجبال، وأسال دمعا كما يسيل الماء في الجداول.

(٢) المقامات اللزومية، ص١٢٩.

وتعرية التناقض، والانفصام المتفشي في مجتمعه آنذاك، بين سلوك الوعاظ، وبين أقوالهم.

وتظهر المفارقة أشد ما تظهر، حينما يقف واعظا فيخلب العقول، ويوقظ الضمائر، ويلهب المشاعر، ويستميل القلوب، ببراعة بيانه، وفصاحة لسانه، فتبدوا عليه أمارات الولي الصالح، الذي يذكر الناس بأمور الآخرة والموت، ويحثهم على التخفف من زينة الدنيا، وهجر الذنوب والمعاصي، ومن ذلك قوله في المقامة السادسة عشرة (الثلاثية)، التي تدور أحداثها في مدينة غزنة، حينما كان يتجول فيها(السائب بن تمام) سمع (أبا حبيب السدوسي) يقول: **" فإذا بشيخ له صوت حنين، وبكاء وحنين، وتلهف وأنين، وأشرف على ذروة من القول وشرف، وهو يقول:**

دعـــاه اللهـــو والعجَـــبُ وان الفـــــوت والشـــــجبُ

وقـــال اثـــوبُ فـــي رجـــب فجـــاء ومـــا ارعـــوى رجـــبُ

فيـــا مغتـــرَّ هـــل يغنيـــــ ك يـــوم الذلـــة والحجـــبُ [1]

فهو كما – تلاحظ- يعظ الناس، ويحثهم على ترك الشهوات والمعاصي، ويرغبهم في التوبة والرجوع إلى الله قبل فوات الأوان، لكن المفاجأة والمفارقة، ومالم يكن في الحسبان، أنه بعد هذه الموعظة، التي لم يكد يفرغ منها، يأخذ طريقه إلى الحانة، فيستبدل ثوب العبد الزاهد، بثوب المقامر والفاجر، فيخاطب (السائب بن تمام) قائلا: **" يا سائب فسر بنا حتى نقطع يومنا بالأنس، ونترك الجمل للعفس، والنوع للجنس، قال فسرت معه حتى أفضى بي إلى بيت فيه لعب وقمار، وصحو وخمار، وعود ومزمار، وقال: اختر، فإنك مختار، وهذه الملاهي والأوتار، والله الغفار الستار"** [2]

(١) المقامات اللزومية، ص١٥٩.
(٢) المقامات اللزومية، ص١٦١.

فالتذكير بالموت والآخرة من (أبي حبيب السدوسي)، وهو أحوج الناس إلى ذلك، أمر يثير الضحك، ولكنه ضحك كالبكاء كما قيل، لكنه يزيد المفارقة عمقا وتأكيدا.

وفي المقامة التاسعة عشرة، تجده يقول:**" أين من شيد وأطال، وملك واستطال، وكفر وتمرد، ونكب عن السبيل وعرد، أين فرعون ذو الأوتاد، وكنعان أخو العدد والعتاد، أين منه العصيان والعناد، بل أين الحشم والأجناد، مروا كأمس الدابر، وانصدع الشمل، فهل من جابر .. فأين الأجساد والجسوم، تمرون على القبور والأجداث، ولا تفكرون في النوائب والأحداث، فيا عجباً للاه عنها ومُعرض، وهو من الحتوف في ميدان ومعرض، و يا أخا الدول والممالك، هل أنت إلا هالك وابن هالك "** (١)

ثم بعد هذه الموعظة، التي تهز المشاعر، وتحرك القلوب، إذا به يجيب داعي الهوى، ومعاقرة الخمر، والغواني قائلا:

إذا دعـــا اللهـــو والعقـــار فـــلا لجـــين ولا عقـــار

رب خلـــــوق ورب مســـــك أزرى بـــه فـــي الزمـــان قـــار

وكيـــف بـــي والهـــوى ملـــح لـــه علـــى صـــبوتي نقـــار

وفي المقامة (السادسة) يعظ القلوب، ويخلب العقول، ويلهب المشاعر حتى تشعر أنك أمام فقيه بارع، وواعظ مفوه، لا يتسرب إلي قلبك الشك، ولو للحظة أنه خليع ماجن، يقول: **" ألا فاشكروا الله شكرا، وصلوا عليه ثناء وذكرا، وأجيلوا في أنعمه الأفكار، واقطعوا في حمده العشي والإبكار..."** (٢)

(١) المقامات اللزومية، ص١٨٢-١٨٣.
(٢) المقامات اللزومية، ص٥٨.

فهو- كما تلاحظ- يستغل بلاغته وفصاحته، في استمالة الناس والسيطرة على قلوبهم وعقولهم، ومن ثم تنافسوا في إكرامه بهداياهم، لدرجة أعجزته عن حمل ما جادوا به، فاستعان بالراوي (السائب بن تمام) في حملها، لكن المفاجأة أنه سلك طريقا مغايرا ومناقضا للطريق الأول، حيث أخذ (السائب) معه بعد ذلك إلى الحان؛ ليقضي ليلة معه، بين أحضان الغواني في ذلك المكان، الأمر الذي أدهش الراوي واستفزه؛ حتى بادره مستنكرًا: **عظ، ومن الكور إلى الحور؟ أين منك الوعد الوعيد؟ والمبدئ والمعيد؟ .."** [1]

وتتكرر المفاجأة أيضا لدى القارئ تجاه (أبي حبيب)، الذي يخلع قناع الولي الصالح سريعا؛ ليرتدي قناعا جديدا، وهو قناع السكر والمجون والخلاعة، وذلك عندما يحتال على راويه (السائب بن تمام)؛ فيقوده إلى إحدى الحانات حيث الخمر والجواري والفساق: **" وسرت معه إلى دارة مثل الخان، ذات قتار ودخان، ورحاب وصحون، ونغم ولحون، ثم سار بي إلى مجلس كالبجاد، وجوار كحمائل النجاد، يتوقدن توقد النجوم، ويتراسين من الكؤوس بالرجوم، فوقعن عليَّ وقوع الفراش، وعلى لين النضيد، ووثير الفراش، وبقيت من مداعبتهن ومغازلتهن في مثل الهراش أو الجراش أتمتع بـ..."** [2]،وفي المقامة نفسها بعد أن يوقع السائب في شباكه، إذا بابنه حبيب يخلفه، فينصح السائب، ويدعوه إلى التوبة، وترك اللهو والعبث[3]

وفي المقامة الحادية والعشرين، ينتقد السلوك المتناقض المتفشي في مجتمعه من خلال المفارقة المتمثلة في شخصية الإمام صاحب الوجهين، الذي بمجرد أن فرغ من التشهد والتسليم؛ حتى شرع في التضرع والابتهال، وبدت عليه سمات الورع والتقشف؛ حتى أرخى

(١) المقامات اللزومية، ص٦٠.
(٢) المقامات اللزومية، ص ٣٩٤-٣٩٥.
(٣) المقامات اللزومية، ص٣٩٦.

الليل ستاره، وهنا كانت المفاجأة، التي تثير الدهشة؛ إذ تحول إلى سبع عاث، يلهث وراء الشهوات والنزوات [١]

فعلى الرغم من مواعظه البليغة، وابتهالاته وأناته، التي تظهره في صورة العالم الفقيه، والتقي الورع، إلا إنه كان كثير التردد على أماكن السكر والخمر، والهوى، فهو كما رأيت ماهر في أداء الأدوار المتناقضة، ففي النهار: إمام يؤم الناس، يبكي ويتضرع ويبتهل إلى الله بالدعاء، وفي الليل سكير صاحب لهو ومجون؛ مما يكشف عن تناقض عجيب، ومستمّر بين الروحي المتغلغل، والجسدي المسيطر، بين اشتياق إلى السمّو بكل صدق، والانحدار إلى الدناءة بكل انقياد، وهذا القارئ وربما بكائه وصراخه.

وتشتد المفارقة حينما نرى القاضي الذي هو ملاذ المظلومين، ومرتجى الشاكين، وصوت الحق والعدل بين الناس، وعلى منصة القضاء خائن مرتش، يحول أمن الناس، إلى فزع يقول: **" يا أخا المجان، بلغني أنك تساهم القوم في الغدوات والعشوات، وتسامح في القهوات والنشوات، وأن لك على ذلك حذرا، ما سمعت منك فيه عذرا، وما الذي حملك على ذلك وجرأك وخلصك من هذه التبعة وبرأك، وهلا عرفتنا بما صنعت وأديت ما جمعت ومنعت، تختص به دوننا اختصاصا، ولا تخاف اقتصاصا، والله لا برأك ولا نجاك ولا أطعمك ولا رجاك، إلا أن تُسلم كل ما في يديك، ؛ حتى تعلم ذنوبك وتتجرع من الذل ذنوبك "** [٢]

فالقاضي هو السبيل الذي يلجأ إليه الناس؛ لرد المسلوب، ونصرة المظلوم؛ لكن المفاجأة أن القاضي نفسه هو الذي يغريهم بالرشوة، ويعين الظالم على ظلمه، وينشر الفساد بين أفراد المجتمع - فكما ترى- تتعمق المفارقة وتشتد حدتها من خلال هذا التضاد الحاد بين ما نُصّب القاضي من أجله، وبين سلوكه الذي يسلكه؛ إذ السائد بين

(١) المقامات اللزومية، ص٢٠١.
(٢) المقامات اللزومية، ص ٢٢٦-٢٢٧.

الناس، أنه يتحلى بالأخلاق الفاضلة، والسمات الدينية المشرقة، من عدل، وأمانة، وعفة، وعلم، ومعرفة، بيد أن الكاتب خالف هذا التوقع، فأبرز القاضي في صورة إنسان يتصف بالجور والظلم، فهو لا يتورع عن تعاطي الرشوة، وسرقة أموال العامة.

وتراه يسأل الناس المال، بعد أن تقلبت به الحال، وطارق ليل، ضاقت به السبل، يطلب الإقامة حتى الصباح، وفي مقابل ذلك يتحف القوم بغريب الأخبار ويفتنهم بعلمه وأدبه، ففي المقامة السابعة والعشرين، يقول: **"يا إخوان العافية، وأخدان النعمة الوافية، انظروا ضرم،وسليب دار،وحريب أقدار،قد قيدته السنون والأحوال،وجرسته[1] الأمور والأحوال،لم يبق منه إلا قلبه ولسانه، وإلا براعته وإحسانه، ولقلما أغنى عنه ذلك، وقد بقِي لقى عن الخشيب"**[2]

وهو دون شك سلوك يتناقض مع علمه، وأدبه، ومكانته، لكنها مفارقة صارخة، تعري الانتكاس، الذي وصل إليه المثقفون والعلماء في مجتمع الكاتب، وإشارة ضمنية لزمن الكاتب، الذي طغى فيه طلب المال، على طلب كل ما سواه من علم وأدب.

وفي المقامة الثامنة والعشرين، يقول مخاطبا (السائب بن تمام): " **يا سائب لا يربك مني رائب، المرء بزمام القدر مقود، والخير في نواصي الخيل معقود، وأنا يعلم الله لا ظلوم ولا حقود، لكنما عندهم عيون ونقود، وهم عن البر نيام ورقود، وقد دعتني دواعي الارتحال، وعوائد الانتحال، والمرء من دنياه بين حقيقة ومحال، وهذا السيد الضخم، فما كنت لأخيس بعهده، ولا لأخل بجهده، ولو لسألته الرحيل لأبرم السحيل، ولأرسل الحجاب، وما سرح ولا أجاب، ولا بد أن أهز أعطاف نداه،وأستدر أخلاق جداه حتى نستوفر الزاد ونملأ المزاد** " [3]

(١)جربته وأحكمته.
(٢) المقامات اللزومية، ص٢٤٥.
(٣) المقامات اللزومية، ص٢٥١-٢٥٢.

وفي مقامته (الحمامة) تراه يستدر عطف الناس، من خلال حمامته الأسيرة، التي وقعت في شباك الصياد، ويعرض للناس ألمها وآلامها داخل القفص: **" أين منك طريد جارح، ليس ببارح، وأسير صائد ليس بعائد، وشاج باك أخيذ شباك، وسليب أباطح ونباك، لا يفرع فننا ولا يمر عننا، وقد كان يضيق به الجو ولا يسفه الدو، فها هو اليوم في بيت أضيق من القبر وحال أنكى من إبر الدبر، ساعاته أطول من الدهر حبا، ولا يزور حِبا، فهل رأيتم كمثلها من فاقد إلف، وعاقد حلف، نزع به الشوق ما نزع فكفه الدهر ووزع، فهل فيكم من يرق لها ويشفق، ويرسل درهمه وينفق، يفك رهنها، ويرد وهنها.."** [١]

فهو كما تلاحظ يتخذ من الحمامة وسيلة؛ لتحقيق هدفه وهو الحصول على المال، فيلجأ الى ضروب من الحيل والألاعيب، التي تمكنه من الوصول إلى قلوب الناس، وهز عواطفهم ومشاعرهم نحوه؛ ليظهر بمظهر المستحق، ومن ذلك أيضا ترقيصه للدب ومداعبته؛ لتحقيق غاياته وأطماعه في المقامة الخامسة والثلاثين [٢]، ونفس الصنيع أيضا مع القرد في المقامة الثامنة والثلاثين[٣]، فهو في الظاهر يسلي الناس، لكنه في الحقيقة يحتال عليهم، إذ لم ينتظر منه ذلك، وهذه هي قمة التناقض والمفارقة، التي تعري سلبيات مجتمعه وعصره.

فالسدوسي –كما رأيت- متعدد الأدوار قادر على التحول، والتنكر، والتعدد، فمن إمام واعظ وعابد زاهد، إلى ماجن بالليل، ومن رفيق مخلص إلى مخادع متنكر، ولا شك في أن هذه المفارقات وهذه المتناقضات، تعكس الأوضاع الثقافية، والسياسية، والاجتماعية لمجتمع (السرقسطي).

(١) المقامات اللزومية، ص٣٥٢.
(٢) المقامات اللزومية، ص٣٣٠.
(٣) المقامات اللزومية، ص٣٥٨.

فهذه الثنائيات المتناقضة، تشكل واقعا معاشا حاول (السرقسطي) تشخيصه بدقة، من خلال شخصية البطل (أبو حبيب)، والذي مثل نموذجا إنسانيا، تراكمت فيه جميع الأوصاف والأفعال المتناقضة، ويبدو أن السرقسطي كان يرمي من وراء ذلك، إلى كشف التناقض الكبير بين سلوك الواعظ الزائف، ودعوته الخلقية؛ بقصد تعرية هذه النماذج، ودعوتها إلى تعديل مسارها.

ب-شخصية السائب بن تمام:

شخصية (السائب) هي التي تروي الأحداث، وتشارك في صنعها أحيانا، بمعنى أنه يروي الأحداث من جانب، ومن جانب آخر يشارك البطل (السدوسي) البطولة، لكنه يختلف اختلافا جذريا عنه؛ إذ هو بمثابة الفريسة والضحية، التي تقع في شباك (السدوسي) كل مرة، ومن ثم فالعلاقة بينهما قائمة على التناقض والتضاد.

والعجيب أنه لا يتعلم من أخطائه، ويلدغ من الجحر الواحد مرات ومرات! ومع ذلك يتعلق بالسدوسي، تعلق العاشق بالمعشوق! ففي المقامة الثالثة عشرة، ينصب له (السدوسي) فخا مدويا، كاد أن يودعه السجن، يقول القاضي مخاطبا (السائب): **" أحقا أودعك هذا الشيخ أثاثا ومالا؟ فقلت لا وحق الشيخ ابن عفان، مالي بهذا الشيخ عرفان ولا لي به من عهد، وإني لفي نجد وهو في وهد، وإني لابن سبيل وأبيل ابن أبيل، وأخو حي وقبيل، وذو حسب نابه، وقدر نبيل، فاتقوا الله فيّ وعليّ، وإلي بهذا الشيخ إليّ، حتى اتبين صورته، وأكشف سريرته، فلهدوه إلي لهدا، وأوسعوه مشقة وجهدا، فحدر عن بآثامه، وقال أنا الذي تعرف.."** [1]

، من جريمة لم يرتكبها، فحينما نزل بلاد نجد، وجه القوم هناك إليه تهمة، نسج خيوطها (السدوسي)، حيث ادعى الأخير أنه أودع (السائب) مالا، وأثاثا مسروقا في حجرته التي يستأجرها، والمفارقة

(١) المقامات اللزومية، ص١٢٨.

تبدو واضحة في صمود (السدوسي)، وتبريره لسرقة المال والأثاث، ممن كانوا معه في مسجد اليمامة أمام القاضي، وعذره في ذلك أنهم هم الذين دفعوه؛ لذلك ببخلهم وعدم إكرامهم إياه، لكن بعد إحضار القوم، اعترف بحيله ومكائده، التي كان السائب منها براء.

ويشكو مكره وخداعه المتكرر، حينما طلب (السدوسي) راحلته وزاده، وأنه سوف ينتظره؛ ليصطحبه في الطريق، بعدما أقنعه بمشاهدة رسوم الطاووس، وأطلال التماثيل هناك وتأملها، يقول (السائب): **" فنزلت له عن الراحلة، وجعلت في يده المِقْود، وألقيت إليه المزود، وسرت لأشرف على تلك الصور، وقد خلعت لباس الضعف والخور، فأقمت هناك إقامة وترددا، وقد أوسعني قوله تبلدا وتلددا**(١)**، وطلبته حيث وعدته، ففقدته وما وجدته...فعلمت أنه الشيخ المختال، والذئب المغتال، أبو حبيب.."** (٢)

كانت دعوة (السدوسي) (السائب)؛ للتأمل والتفكر، والاعتبار من خراب الديار، هي المدخل والحيلة لخداعه، وهكذا في كل مرة لا يستطيع (السائب) أن يخرج من الدائرة التي نصبها حوله (السدوسي)، وأبناؤه حيثما ذهب؛ إذ يجده صيدا سهلا لا عناء فيه ولا نصب؛ فلا يكاد يجده أمامه إلا ويوقعه في آذاه، والمفارقة أن(السائب) يعلم ذلك ولا يتخذ موقفا:**" لا يغُبُني أذاه.. كأنه لا يعلم غيري، ولا يعني إلا بمقامي وسيري، وأنا على ذلك أشتاق لقاءه، وأستديم بقاءه، وأغتفر زلاته؛ لأتوهم سراره وسواره، وأرى بكل شخص، شخصه وسواده"** (٣)، بل كما رأيت يلتمس له الأعذار، ويشتاق لرؤياه، ويتجاوز عن زلاته.

(١) التلدد: التلفت يمينا وشمالا في حيرة.
(٢) المقامات اللزومية، ص٢٥٨-٢٥٩.
(٣) المقامات اللزومية ، ص٢٦٤.

وتتعدد المفارقات في شخصية(السائب)، فبجانب عدم اعتباره من خُدَع السدوسي وأفعاله، تراه أيضا على المستوى الشخصي- في أكثر من موضع في المقامات- ميالا إلى الهوى، مقبل على الخمر، مغرم بالنساء، ذو مزاج وطرب، يصيب بسهم من الهوى، فهو شخصية تشتمل على كثير من المفارقات بالرغم من ورعه ووقاره، وسلوكه السوي في كثير من المقامات، ترى ذلك في قوله: **" كنت وجنى الشبيبة مارد، وسهم البطالة صارد، آلفُ كل شاطر، وأستسقي كل صائب من الصبابة وماطر... إذا أنا بسرب نساء يتخايلن بين مِرط وكساء، يتأودن تأود الغصون، ويكشفن عن الحسن المصون.. وأنا أتابع الآثار"** (١)

وتصور المفارقة في المقامة (الخمرية) نمطاً آخرا لـ(السائب) صاحب التوبة الكاذبة أو المترددة، حيث ينكث فيها التائب وعده، ويعود إلى عبثه ومجونه، فتبدو المفارقة جلية عندما يعلن التوبة من الخمر، وفي الوقت نفسه يمدحها ويعدد محاسنها؛ فينكث توبته، ويدبر بعد إقبال، يقول: **" كنت قد ودعت الصبا والصبابة، وترشفت الشفافة منها والصبابة، واعتزمت الإنابة والإقلاع، وحنوت على التوب الجوانح والأضلاع، وأكفأت الكئووس والنخب، ورفعت الملاهي والصخب، حتى إذا ساورتني سورة الجريال، ولقحت حرب صبابتي عن حيال، فراجعتها بعد التطليق، وقابلت عبوسها بوجه طليق.. ولذة لشاربها وناشقها، وحنت لخاطبها وعاشقها، فامتزجت بالنفس روحا، وغادرت غصن الحياة مروحا "** (٢)

فعلى الرغم من تأرجح (السائب) بين الفضائل، والرذائل، والأهواء، لكنه في الغالب عف اللسان، نظيف اليد، مترفع عن الرذائل، ذو عزة وإباء، يقدر القيم والأخلاق، ويطلب العلم أينما كان، لا يسعى لخداع الناس كما كان يصنع (أبو حبيب)، بل يعظه

(١) المقامات اللزومية ، ص٨٧.
(٢) المقامات اللزومية، ص ١٩٠-١٩٢.

ويقف له، ويلومه على قبيح فعاله، لكنه مع ذلك كان يقع في إغراءاته، وهو ما يزيد المفارقة عمقا.

وتكون المفارقة أكثر حدة، حينما تعقد مقارنة بين شخصية (أبو حبيب السدوسي)، وشخصية (السائب بن تمام)؛ إذ من خلال ما سبق، تستطيع أن تدرك التضاد الحاد بين الشخصيتين، فشخصية (أبو حبيب) شيخ مكد محتال، قادر على التلون والتحايل، وخداع الناس، وسلب أموالهم، وفي مقابل ذلك شخصية (السائب) مخموم القلب، نقي السريرة، محب للعلم والفضيلة، مقاوم للإثم والبغي، بقدر طاقته.

المبحث الرابع: مفـــارقة المكـــــان:

لا شك في أن هذا التعدد المكاني للمواقع، التي رحل إليها(السدوسي)، وانتقل منها، مفارقة مكانية صارخة، تشير إلى دلالات متعددة؛ إذ ترى في مقاماته أماكن شتى، مسماة كـ(بغداد، وسنجار، وحران، والكرج، والصين، وجزر الهند، وغزنة، ومصر، والإسكندرية، ودمياط، وحلب، وفلسطين، والزاب، وطنجة، والقيروان، وجزيرة طريف)، وأماكن غير مسماة، حيث يقول (في أحد البلدان، البلاد)، فكما تلاحظ أطلق لنفسه، ولأبطاله العنان، فرحلوا وارتحلوا إلى أماكن عديدة، فهو يكاد يرتاد معظم البلاد الإسلامية، لا سيما بلاد المشرق الإسلامي؛ ولا شك في أن هذا التجول المتعدد، حيث الارتحال من مكان إلى آخر، يمكنه من خداع الناس والسيطرة عليهم، وسلب أموالهم.

ولعل السر في توظيف المفارقة المكانية هنا، وعدم البقاء على مكان واحد، يعود إلى إشارة الكاتب الضمنية، إلى الشتات الذي تعيشه البلاد الإسلامية، وافتقادها للوحدة في عصره (ملوك الطوائف)، ولذلك تشعر بالشتات والاغتراب النفسي الذي يعيشه في قوله: **" وهنا وقف الواقف، وربما خزى الناقف، هذا ولا أكثر، وغيري من بربر أو ثرثر، الاغتراب الاغتراب، لا صلة ولا اقتراب.. وا لهفي لعدم الرفيق.. وبعد الدار، وانقضاض الجدار "** [1]

فـ(السدوسي) يعاني من عدم الانتماء؛ إذ تراه لا ينتمي إلى مكان بعينه، إنه تائه مغترب في المكان، يبحث عن ذاته الضائعة، في الوطن الضائع (الأندلس) الذي ماتت فيه الفضائل، وضاعت فيه الأحلام؛ نتيجة صراعات ملوك الطوائف .

(١) المقامات اللزومية، ص٢٩٦-٢٩٧.

وبالتالي فالمكان -كما ترى- في مقامات (السرقسطي)، يفتقر إلى الاستقرار، والألفة، والوحدة، حيث تشعر فيه الشخصية بالاغتراب النفسي والمعنوي، ولعلك تلاحظ أن المكان وخصوصا(البيت)، الذي يأوي إليه الإنسان، إنما يأوي إليه؛ رغبة في الراحة والأمن والاستقرار، لكن المفارقة، أن البيت جاء في مقامات (السرقسطي) على عكس ذلك في عدة مواضع، منها أن(السائب بن تمام) حينما أراد أن يستأجر حجرة للراحة والاستقرار؛ كانت هذه الحجرة سببا في شقائه وعنائه، وتعرضه للمسائلة والوقوف أمام القاضي؛ إذ اتهم من أهل اليمامة بسرقة الأثاث والأموال، المودعة في تلك الحجرة من قبل (أبي حبيب السدوسي)، ترى ذلك في قوله: **" فتنحيت حجرة، وحسبتها بُجْرة، فما شعرت إلا بالقوم إليّ سراعا، وقد مدوا نحوي يدا وذراعا، فاشتملوا علي اشتمالا.."** (١)

فبمجرد أن دخل حجرة البيت؛ طلبا للراحة، انكب عليه الناس يكيلون له التهم واللكم؛ ولذلك تراه يصف الحجرة بالداهية العظيمة في قوله **(وحسبتها بُجْرة)**، ومن ثم كانت المفارقة التي أدهشته، وجعلته يضحك باكيا؛ نظرا لأن المكان هنا مضلل، غير مفهوم لديه، متناقض مع مراده، يرجو فيه الراحة، فإذا بالقلق والأذى يصيبه.

ومن الصور التي تناقض المعنى الحقيقي، الذي وضع له البيت، مجيئه محملا بمشاعر التيه والضياع، والانحراف، على عكس ما يهدف إليه الإنسان من البيت، وهو " إقرار وجوده، والبرهنة على كينونته، من خلال الإقامة في مكان ثابت؛ سعيا وراء رغبة متأصلة في الاستقرار وطلب الأمن للذات" (٢)

(١) المقامات اللزومية، ص١٢٨.
(٢) بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، ص٥٣.

ترى ذلك في قول (السائب): **" قال فسرت معه، حتى أفضى بي إلى بيت فيه لعب وقمار، وصحو وخمار، وعود ومزمار "** (١)

فبالرغم من رمزية البيت المتمثلة في الأمن، والاستقامة، والاستقرار؛ إلا أن استعماله هنا يناقض معناه، حيث الضياع والانحراف، ولا شك في أن الكاتب، أراد من خلال هذه المفارقة، تصوير الأوضاع المنتكسة، وبؤر الفساد المنتشرة في مجتمعه وعصره، التي كانت تشكل البدايات الأولى لتراجع القيم، وانهيار الكينونة الثقافية، والاجتماعية للأندلسيين.

وبالتالي فالمكان في مقامات (السرقسطي)، متناقض حيث ينقسم إلى أماكن حلِ، وأماكن ترحال، ومن ثم فشخصية (السدوسي) دائمة التخفي والترحال؛ لكي يتمكن من التحايل والتلون والمكر بين الأماكن والبلدان المختلفة، فالمكان لديه لا يعد مكانا؛ إذ أماكنه كثيرة ومتعددة، حتى الوطن مختلف فيه، ويغلب عليها الترحال والانتقال، والمفارقة هنا تكمن في هذا الشتات وتحول الوطن إلى (لا وطن)، فالوطن مخيب للآمال، مضيع للأحلام والطموحات، لا تؤدي فيه الأسباب إلى نتائج، متناقض مع ذاته، ما يتوقعه المرء فيه غير متحقق الوقوع، لا وجود فيه إلا للشقاء، فمن مأمنه يؤتى الخطر.

ومن صور المكان التي تتحقق فيها المفارقة، رثائه لمدينة (القيروان)، التي كانت مركز إشعاع علمي، ومهدا للحضارة العربية الإسلامية في إفريقية، بالإضافة إلى ما كانت تزخر به من عمران، ومعالم حضارية وثقافية، جعلتها تحتل الريادة بعد الحواضر المشرقية الكبرى، كمكة المكرّمة والمدينة المنورة، لكن هذا الوضع لم يدم طويلا، فبمجرّد أن نقض بنو هلال العهد، الذي أُبرم بينهم وبين القيروانيين؛ حتى هبّوا كالعاصفة القوية على مدينة القيروان، خربوها، ودمّروها، وقتلوا أهلها، وشرّدوهم، ودمروا حضارتها،

(١) المقامات اللزومية، ص١٦١.

وقتلوا علماءها وفقهاءها، وفي ذلك يقول: **" خرجنا في جماعة ذات قيروان، حتى مررنا بمدينة القيروان.. فوصلناها وقد وطئنا الطريق، وتزايل منا الخليط والطريق، وقد استولى عليها الخراب، وذهبت بدولتها الأعراب، فأغاضت حوضها وغديرها، وزلزلت خورنقها وسديرها، فعجت على تلك الأطلال والرسوم، وتقت إلى تلك الآثار والرسوم، فذكرت كم ظعن بها من ظاعن، وطعن في لبتها من طاعن، وكم كان بها من خود شموع، وشهم زموع، وروض مهضوب، وبنان مخضوب، وجناب، وحرم وفضل وكرم.."** (١)

فالمكان هنا (القيروان) يجمع بين مشهدين متناقضين، فهو كما ترى يستدعى الماضي المشرق، مقارنة بالحاضر الآفل، فالماضي غائب على أرض الواقع، حاضر في الذاكرة والوجدان، وبين الماضي والحاضر من التناقض، والتنافر، والمفارقات، كما بين المشرق والمغرب، ولا شك في أن هذه المفارقة كشفت التباين والتضاد في المكان؛ فظهرت فيه صورتان، صورة لماض (القيروان) الجميل، والصورة الثانية للحاضر الأليم، المضاد للصورة الأولى في ذات المكان.

وترى المفارقة المكانية أيضا للمسجد في المقامة الخامسة يقول الراوي: **" فسرت إلى المسجد الجامع، حيث ملتقى اليائس والطامع، وإذا بفتى كالكوكب اللامع ذي منظر خاشع، وجْفن دامع، يجيد الإنشاد والإنشاء، ويلعب بالعقول كيف شاء..."** (٢)

فالدلالة الحقيقية الموضوعة لـ(المسجد) هي كونه مكانا مقدسا، وضع لإقامة الصلاة والعبادة، وهذه المكانة جعلته أقرب ما يكون إلى حّد من الحدود، التي لا يمكن تجاوزها، مهما كانت الظروف والملابسات، أما (السرقسطي) فقد جعله مكانًا يتناقض تماما مع هذه الدلالة، وتلك الصورة الأصلية، حيث صار مكانا؛ لتحقيق المآرب

(١) المقامات اللزومية، ص٢٥٦.
(٢) المقامات اللزومية، ص٤٧.

والأطماع، وهذا ظاهر في قوله: (ملتقى اليائس والطامع)، عن طريق استخدام المكر والخداع، والظهور في صورة الواعظ الخاشع.

ومن هذه الصور أيضا ما ورد في المقامة الخامسة والعشرين، يقول الراوي (السائب بن تمام): **" دعتني دواعي الغي إلى أرض الري.. إلى أن مررت بمسجد ضجاج وجدال واحتجاج، وإذا بخصوم يختصمون إلى شيخ زَوْل ذي حكم وصول، فتأملت قضاياه، وتوسمت سجاياه، فإذا بها تدور على مجون..."** (١)

فالأصل في المسجد –كما هو معلوم-أنه مكان للمناجاة والخلوة بالله سبحانه وتعالى؛ لبث الشكوى، وإظهار التضرع والخضوع له سبحانه، وتحقيق السكينة والاطمئنان؛ لكن المسجد هنا صار محلا للنزاع والضجيج والخصومة، وهي صورة مناقضة للصورة الأصلية تماما؛ نظرًا للتضارب الشديد بين قدسية المسجد كمكان للعبادة والطمأنينة، وبين مقاصد الشخصيات المتمثلة في النزاع، وممارسة الاحتيال والتنكر في هذه الأماكن؛ تحقيقا لمصالحها الشخصية كالسلب والنهب.

فالمكان- كما ترى- تنافرت فيه الدلالات الايجابية، وتعالقت مع الدلالات السلبية للشخصيات، وهذا ما يجسد التضاد الواضح بين ما وضع له المكان، وبين مقصد الشخصيات، ولا شك في أن هذا يكشف عن عمق المفارقة، فهو للناس مكان للصلاة والعبادة، في حين يتحول عند البطل، ملتقى لليائس والطامع، وأحيانا إلى مكان فيه ضجاج وجدال واحتجاج... ومكان لتحصيل المال بغير حقه.

كما تظهر مفارقة المكان من خلال إبرازه، التناقض بين مقصد (أبي حبيب، والسائب) من الرحلة والارتحال، فلم تكن المقاصد من الحل والانتقال لديهما واحدة، بل كانت هذه الرحلات من الغرب إلى الشرق، هي رحلات من الفرع إلى الأصل، وليست رحلات للحج، أو طلب العلم، أو الجهاد، أو التجارة، وإنما هي رحلات للغذاء الروحي بالنسبة للسائب، ورحلات للمادة والكدية، والتكسب بالنسبة لشخصية (أبي حبيب).

---

(١) المقامات اللزومية، ص٢٢٦.

المبحث الخامس: مفارقة الزمـــان:

تبدو مفارقة الزمان في اختلاطه، ودورانه عكس مراد الإنسان، ومن مظاهر ذلك في مقامات (السرقسطي) الشكوى من الزمان وتقلباته، التي تفاجئ الإنسان، ولا شك في أن هذه التقلبات تزيده غموضاً وتناقضا، فهو: "ذو لونين، فهو يخضع ويتغلب، يطيع ويتمرد، يفي بوعده ويخلفه، ليس باستطاعة أحد التكهن بنيته، بدلالة علاماته، ما يصدر عنه من حوادث مختلطة، مزيج من الخير والشر"(١)

ذلك أن الظروف المتقلبة، التي مرت بها بلاد الأندلس من سقوط لدول الطوائف، واستيلاء المرابطين عليها، والصراع الدامي مع الممالك الإسبانية، قد أدى إلى شعور الأندلسي بالتوتر وعدم الاستقرار، ناهيك عن تناقض الحياة وتقلباتها، وتغير الأيام وتبدلها؛ دفعت الأدباء إلى شكوى الزمان، ووصفه بالتحول والغدر، وعدم الأمان.

وبالتالي يشيع في المقامات اللزومية حديث (السرقسطي) عن الزمان ومفارقاته، وعجز الإنسان واندهاشه منه، فتراه يقول:

امـــا تـــرى الال والســـرابا والـــدهر بـــالحر قـــد ارابـــا

إذا اراك الزمـــــان وجهـــــا فســـر علـــى وجهـــك انســـرابا

ولا تبـــلّ عـــن مـــلامٍ قـــومٍ قـــد ارســـلوا نحـــوك الحرابـــا

ولا تكـــن عـــاجز المســـاعي وامـــلا إذا امكـــن الجِرابـــا (٢)

فهو يرى أن الزمن يريب الحر، أي يزعجه ويقلقه؛ لذا يتعين على الإنسان اغتنام الفرصة إذا واتته، أو أولاه الزمان وجهه، وأن لا

(١) الزمن في شعر ابن حمديس الصقلي، ختام محمد حسين العبودي، ص ٣٨، رسالة ماجستير - كلية التربية للبنات- جامعة بغداد، العراق، ٢٠٠٢م.
(٢) المقامات اللزومية، ص٢٧.

يتوانى في تحقيق مراده؛ نظرا لأن الزمن متناقض، ومتغير وغير ثابت.

ويقول في المقامة الرابعة:

لا يخـــدعنك الـــزمن الخـــادع فإنـــه الشـــاعب والصـــادع
واقـدع فـديت الـنفس يـا جامحـا لـم يثنـه عـن غيـه قـادع
فـي إثـرك الليـل جـرى والضـحى وانـت فـي ظـل المنـى وادع[1]

ويزداد تبرمه من الزمن فيقول:

دنيـاك يـا صـاحِ جسـر والـدهر عسـر ويسـر
سـل الـردى عـن سـامٍ هـل فـات او مـات نسـر
انـت الطليـق ولكـن وراء عمـرك اسـر
وإن تطـاول عمـر واشـتد خلـق واسـر
يـا ويـح سـاع لامـر وحظـه منـه خسـر
قصـارُ كـلِّ عزيـز ذلّ هنـاك وقسـرُ

فهو يرى أن الدهر مزيج من المفارقات، والإنسان فيه بين عسر ويسر، وانطلاق وتقييد، وعز وذل، وحركة وسكون، وفرح وحزن، لا يستقيم على حال؛ نظرا لتنافر أحداثه، وسيرها في اتجاه غير متوقع لديه، أو لدى الإنسان.

وفي مقامته الأولى يشكو تقلب الزمان ومفارقاته: **" ثم لم تكن إلا أن تقلبت أحوال، وتعاقبت سنون وأحوال، ذهبت بالحديث والقديم، وأثرت في الصميم والأديم، فبدلت من النعيم البؤس، ومن البشر القطوب والعبوس، وعوضت من العذب المجاج بالملح الأجاج، ومن الإعزاز بالإذلال، ومن**

(١) المقامات اللزومية، ص٤٢.

الإكثار بالإقلال...فيالك من دهر لا يُبقي على أحد، و لا يُبقي على مستأنس وحَد..

دعـــا بـــك الـــدهر لـــو تجيـــب يـــا حبـــذا الســـامع المجيـــب

كـــم تصـــحب الـــدهر بالأمـــاني يغـــرك الطـــرف والنجيـــب

فخـــذ حـــديثا عـــن الليـــالي فكـــل انبائهـــا عجيـــب (١)

فسياق المقامة يكشف عن التأزم الانفعالي الشديد، المنبعث عن معاناته، من تقلبات الدهر وتناقضاته، وأنبائه العجيبة، التي تصيب صاحبها بالدهشة والحيرة.

وفي إحدى مقاماته تسمع صوتا حزينا، يشكو غدر الدهر وتقلبه، وقسوة الحياة، وظلم المجتمع وفساده، فهو لا يفتأ يتبرم بالحياة، وبأخلاق أهل الزمان، فقد اضطربت الموازين في عصره وتقلبت، وفسدت الأهواء، يقول: **"... حتى رمتني الأيام بخطوبها، وقابلتني بعبوسها وقطوبها، وسلبتني ذلك الثوب القشيب، وعوضت من الشباب المشيب"** (٢)

وتشعر بمدى تفجع (السرقسطي)، وتحسره لفعل الدهر بالعلماء، ومكانتهم في قوله: **" أيها الناس، الأَريب حريب، والغَريب مستريب، والدهر دوار، والناس أطوار، والعدم زوار، والثروةُ ندار، والكريم يخجلُ، والعديم يوجل "** (٣)

وقوله: " وهذا العلم فقد أضاعته الضوائع، وراعت سربه الروائع، كأنما يطالب حامله بذحل ووتر ويرمي بشفع من الأحداث ووتر:

مـــا أكثـــر الجهـــلَ ومـــا أشـــيعه وارحمتـــــاه للعلـــــمِ مـــــا أضـــــيعه

ضـــــيعني العلـــــم فضـــــيعته أورثتـــــه فـــــي النـــــاس مـــــن ضـــــيعه

(١) المقامات اللزومية، ص١٩-٢٠.
(٢) المقامات اللزومية، ص٤٨٥.
(٣) المقامات اللزومية، ص٣٤٤.

ألم تريا كم في الناس من آخذ عني وحامل، وقائل بعلمي وحامل، خاص بعهدي، ونسي نصبي به وجهدي، أورثته الشرف والمجد، فأورثني الكمد والوجد، وأنزلته النجد واليفاع، فأعدمني البر والانتفاع " (١)

كما تلاحظ يحمل النص السابق مفارقة مؤلمة، تكشف عن معاناة (السرقسطي) النفسية، وإحساسه بالألم والتحسر تجاه زمانه، الذي انقلبت فيه الموازين، وذلك من خلال تدهور مكانة العلماء في عصره، فمن المسلم به أن العلم يرفع صاحبه، ويعلّي مكانته بين الناس، لكن زمان الكاتب وعصره، كسر التوقع عند القارئ، فجاء بنتيجة مغايرة ومناقضة لأسباب العلم، حيث يرى أن العلم ضيعه، وألجأه إلى الاحتيال والتكدي، ولا شك في أن هذا إشارة منه إلى حال العلماء في زمانه، وما أصابهم من فاقة وحاجة.

إن إحساس (السرقسطي) بظلم الدهر له، وعبث الأقدار به، وإحساسه بالضعة، والفقر وضيق الرزق والفاقة، قد دفعه إلى أن يلجأ للتكسب والاحتيال في الارتزاق عن طريق الكدية؛ الأمر الذي جعل القارئ يميل إلى التعاطف معه، والإشفاق على سوء حاله، لاعتقاده بأنه شخصية قد صنعتها قسوة الحياة في عصره، والظروف الاجتماعية، والاقتصادية غير العادلة.

(١) المقامات اللزومية، ص٣٧٩.

المبحث السادس: المفارقة التصويرية:

المفارقة التصويرية تعرف بأنها: " تكنيك فني يستخدمه صانع المفارقة؛ لإبراز التناقض بين طرفين متقابلين بينهما نوع من التناقض... والتناقض فيها في أبرز صوره، فكرة تقوم على استنكار الاختلاف والتفاوت بين أوضاع كان من شأنها أن تتفق وتتماثل، أو بتعبير مقابل تقوم على افتراض ضرورة الاتفاق، فيما واقعه الاختلاف" (١)

وبالتالي فالمفارقة التصويرية، تتحرك على مساحة النص كله؛ لتخلق جوا من التناقض سواء بعنصر الزمن، أو المكان، أو الحوار، أو كسر أفق التوقع؛ لتجعل من المقامة عرضا مفاجئا للقارئ ومدهشا له (٢)

وبتأمل التكثيف التصويري (للسرقسطي) في المقامة (البحرية)، نجد أن المفارقة التصويرية، قد بنيت عبر تقابل بين مشهدين للبحر، **المشهد الأول:**

يتحدث فيه عن البحر وأهواله ومخاطره: **" أيها القوم كل له على هذا الرزق حوم، وإن شيئا يخاض إليه هذا الهول ويجاب، لأمر عُظام وشأن عجاب، وما الذي حملكم على ركوب هذا البحر العجَاج، وخرق هذا الماء الثجاج، ولكم في البر منفسح ومجال، ودونكم من هوله أوحال وأوجال، كأنكم قد ملكتم عنانه أو سالمتم نينانه، ووطئت لكم أعرافه، وذلَّل طمُوّه وإشرافه، والله لو سلكتموه يوما أو قطعتموه عوما لكان ذلك من الخطر، ومعدودا من البطر، هل سدت عليكم المسالك، أو طويت دونكم الممالك؟"** (٣)

---

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة، د. علي عشري زايد، ص ١٣٠، مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ط٤، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

(٢) ينظر: جماليات المفارقة الشعرية عند محمود درويش، ص٧٧، رسالة ماجستير- جامعة بسكرة -٢٠٠٥-٢٠٠٦م

(٣) المقامات اللزومية، ص٦٥، ٦٦.

فعلى الرغم من تحذير (السرقسطي) لهؤلاء القوم من البحر وأهواله، لكنه في الوقت ذاته وفي المقامة نفسها، يفاجئ القارئ ويصيبه بالدهشة، فيأتي السياق على غير المتوقع؛ حيث نقض الكاتب كل وصف تصويري أثبته للبحر يشير إلى خطورته وتهلكته، وذمه، والتحذير منه.

ففي شطرها الثاني يأتي **بالمشهد الثاني** المقابل، الذي يصور فيه البحر ملاذا آمنا، ومصدرا للرزق والاعتبار: **" وإن لهذا البحر لخبرا، وإن به لآيات وعبرا إلى مرافق ومنافع، ومتالع من الرزق ومدافع، فمن لؤلؤ ومرجان، وقاطف من ثمرة وجان، يجود النفس الرطب، ويقذف بما يزري على السرق والعطب** [(١)]**، قد من الله به على عباده، توسعة وإمكانا، وصير ماءه الطهور، وميتته الحلال، ورفع عنم راكبه العي والكلال....."** [(٢)]

فـ(السرقسطي) - كما ترى - يدور بالشيء بين نقيضيه، فبعد أن كان يحذر ويخوف القوم من البحر؛ إذ به يحثهم على ركوب البحر، ويغريهم بالسفر عبره، من خلال تعداده لمنافع البحر، وما فيه من لؤلؤ ومرجان، ولا شك في أن هذا يحقق للقارئ الدهشة، والانتباه إلى طبيعة شخصية (السدوسي) التي تعيش واقعا مأزوما، يدفعه إلى تلك الفعال المتناقضة، والمفارقات الصارخة....وبذلك تتعمق المفارقة فتعود إلى دلالات خارجية ألجأته لهذا؛ إذ هو صاحب حيلة، ودهاء، ولسان، وهو في الحقيقة لا يريد نصحا ولا توجيها، بل دافعه في المقام الأول تكسبي، فهو يمدح الشيء ويذمه في آن واحد؛ لغاية، فالحياة بتقلباتها والمجتمع بانتكاساته، يدفعانه إلى خداع القوم والتحايل عليهم؛ لسلب أموالهم، وبالتالي تراه يتفنن في أنواع الخداع، والانتقال من حال إلى حال، حيث يفصل لكل لون من الألوان، قناعه الذي يلائمه.

---

(١) النفس: بفتح الفاء النسيم، السرق: شقاق الحرير وقيل أجوده، العطب: لين القطن والصوف.

(٢) المقامات اللزومية، ص٦٨.

فالمفارقة –كما رأيت- تقوم على التضاد والتنافر بين مفردات البحر، ومشاهده: (الرزق، والرحلة، والاعتبار)، والبحر (الموت، والهلاك، والشقاء)، وهو كما ترى انعكاس لواقع متناقض ومتباين، وتعبير عن حالة نفسية، وإحساس مبهم يشير إلى البطل، أو المجتمع، أو إلى المكان الذي أنشئت فيه المقامة، ولا شك في أن هذا التنافر، والتوتر الذي تصنعه المفارقة، يسهم في تماسك المقامة، ويجذب انتباه القارئ، ويشجعه على متابعة النص، والحرص على معرفة ما سيؤدي إليه هذا التناقض، والوقوف على دلالاته.

وفي مقامته (الأسدية) يبدع (السرقسطي)؛ إذ استطاع أن يوجه نقدا لاذعا لحكام ملوك الطوائف الذين ضيعوا البلاد والعباد من خلال صورة الأسد الرمزية المتناقضة مع حقيقته وشجاعته، يقول: **" يا أبا الحارث يا أُسامة، يا ذا الحسن والوسامة، يا ذا البأس والشهامة، يا ذا اللفف(١) والنهامة، يا ذا الشأو والسأو(٢)، يا ذا الكبر والبأو(٣)، تُفرَق منك الوحوش، وكل ما يصيد أو يحوش لك الإمارةُ والرئاسة، فأين منك الأناةُ والسياسة، مهلا يا أمير السباع، يا عزيز الرباع، لك الركانة (٤) والرجاحة، فأين منك الحلم والسجاحة(٥)؟ رفقاً على عبيدك، وَصَوْلاً على قَفرِك وبِيدك، قد روعتَ القلوب، وطردت الجدود والحلوب، نحن من جنابك في حرم، ومن سطوك في برم(٦).. مثلك يملك فلا يهلك، ويقدر فلا يغدر، نحن قوم ضعافٌ أكلتنا السهوب والشِّعاف(٧)، وابقتْ منا كلَّ معَّي طليح، ومشفق من المنية مُليح، حتى إذا أَنِسْنا بالنعم، وسمعنا صوات النَّعم، قَطَعت بيننا وبينها السبيل بعدما روعت الحي**

---

(١) اللفف: الإكثار في الأكل، أو كثرة لحم الفخذين

(٢) السأو: الهمة، ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (ت: ٣٩٥هـ)، ت/عبد السلام محمد هارون، ص١٣٤، جـ٣، دار الفكر١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٣) البَأْوُ: الكِبْرُ والفخر، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس الزَّبيدي (ت/ ١٢٠٥هـ) مجموعة من المحققين، ص١٣٩، دار الهداية.

(٤) وَفُلَان رَكين بَيِّن الرَّكانة، إِذا كَانَ وَقوراً ثقيل الْمجْلس.

(٥) السجاحة: اللين والسهولة.

(٦) برم: ضجر وشدة وضيق.

(٧) الشعاف: رؤوس الجبال.

والقبيل..اذهب بفريستك إلى عريستك، وانهض بنبالك إلى أشبالك، خَلِّ المـالَ لمـلاكـه، وتَخلَّ عن الطَـريق لسلاكه" (١)

فالقارئ لهذه المقامة، يجد الكاتب قد بناها على تناقض دلالي واضح، وذلك انطلاقا من الصور والمشاهد التي رسمها للأسد، فالصورة الأولى هي الصورة المعهودة للأسد، حيث الشجاعة، والقوة، والشهامة، والفخامة، وشدة البأس، وعلو الهمة **(يا ذا الشأو والسأو، يا ذا الكبر والبأو، تُفرَق منك الوحوش، وكل ما يصيد أو يحوش لك الإمارة والرئاسة)**، وغير ذلك من الأوصاف التي يتصف بها الأسد.

وفي الصورة الثانية ناقض ذلك المشهد تماما، فأتى بما لم يتوقعه القارئ، من خلال الصورة الثانية، التي تدل على التهور، وافتقاد الحكمة في إدارة شئون بلاد الأندلس، من قبل الأمراء والحكام؛ مما أدى إلى السقوط، وقطع الطريق بين الناس، وبين إنقاذ بلادهم (فأين منك الأناةُ والسياسة، مهلا يا أمير السباع، فأين منك الحلم والسجاحة؟ رفقاً على عبيدك، وَصَوْلاً على قَفرِك وبِيدك، قد روعتَ القلوب، وطردت الجدود والحلوب، قَطَعت بيننا وبينها السبيل بعدما روعت الحي والقبيل.. اذهب بفريستك إلى عريستك، وانهض بنبالك إلى أشبالك، خَل المـالَ لمـلاكـه، وتَخلَّ عـن الطَـريق لسلاكه)، فالصورة الأولى تناقض الصورة الثانية، والأصل فيهما الاتفاق، لكنه ابتعد عن التقريرية والمباشرة، وانتقل بالقارئ من المعنى السطحي إلى المعنى العميق.

وعبر هذه المفارقة التصويرية، يسعى (السرقسطي) إلى توعية القارئ من خلال رفضه لما يجري داخل بلاده، وتعريته لهذا الواقع المؤلم؛ لذا تراه ينهي المقامة بخطابٍ ساخرٍ موجه إلى ولاة الأمور، ومن خلال الاستفهام الإنكاري قائلا: **" أليس من الغريبِ والعَجَب المُريب**

(١) المقامات اللزومية، ص٣٦٤.

أن ينثني الغضنفر الهصور.. وأنتم في صورة الإنسان، وما بكم فضلٌ ولا إحسان " (١)

وتبدو المفارقة التصويرية أيضا في المقامة الحادية والعشرون(٢)، التي تدور أحداثها في البحرين، عندما وصل الراوي إلى هناك، أشعث أغبر لا مؤنس له ولا صديق، توجه في المساء إلى أحد المساجد؛ ليبيت فيها، فوجد الناس بين راكع وساجد، وبعد أن فرغ الإمام من صلاته، استضافه في بيته بعد أن عرض عليه قصته، وبعد أن اطمئن الراوي للإمام أعطاه صرة لؤلؤ؛ صونا لها من الضياع أو السرقة؛ لكن المفارقة أن الإمام سرقها وفر هاربا!!

وبتأمل المقامة، تجد التناقض يسيطر على المقامة من بداية الأحداث إلى نهايتها، والتي كان من شأنها أن تتوافق لا أن تتناقض، ففي الصورة الأولى يصور الكاتبُ الراوي في مشهد يستوجب العطف والشفقة، بعد أن ضاع ماله، ولا مؤنس له ولا صديق.

وفي الصورة الثانية يصور الراوي فقيرا، يحمل صرة من اللؤلؤ النثير، يقوم بودعها عند الإمام؛ صونا لها من الضياع، والصورة الثالثة هي صورة الإمام الذي نكث ما بناه من مشاهد الـ(ركوع وسجود، وذكر، وابتهال، واستغفار) فاحتال على تلك الصرة، وفر بها، فالتناقض كما رأيت يسيطر على المقامة من البداية إلى النهاية، وهي كما ترى تقوم على بنية المشهد والحركة، أكثر من اعتمادها على الدلالة اللفظية، ولعل الكاتب أراد من خلال ذاك التضاد، وذاك التحول وتلك المفارقة، الكشف عن طبيعة عصره ومجتمعه، الذي طغى فيه الصراع المادي على الروح والمبدأ.

ترى ذلك أيضا في المقامة الرابعة عشرة، التي رسم فيها صورة الواعظ المزيف الذي يلبس قناع الصلاح والتقوى، ويرتدي رداء الزهد والتنسك؛ لتحقيق مآربه الشخصية، يحكي الراوي بينما هم جالسون في مجالس اللهو: **" وإذا بشيخ قد وقذه الهجود، وحناه الركوع والسجود.. فقام وألطف الوعظ**

(١) السابق، ص ٣٦٨.
(٢) ينظر المقامات اللزومية، ص٢٠٠.

ورققه، ودقق معناه وشققه، وزخرف القول ونمنمه.. واستوفى واستوعب، حتى ألان منهم قلوبا قاسية .." (١)

أما عن الصورة الثانية فبعد أن وعظهم، يقول الراوي: **" فتولى عنا وقد وددنا ألا فرقة، وقد أودعناه فِرقة، ثم رجعنا إلى موضعنا ذلك، وقد أنكرنا ما هنالك، فوجدناه قد كسرت أغلاقه، وكشط ما هنالك من آنية وجام، وحُلِي وسرج ولجام، وضاعت برود وشفوف.."** (٢)

فالقارئ لبداية المقامة، لا يخطر بباله انحراف هذا الواعظ، الذي رقق القلوب، وأجج المشاعر عن الجادة والاستقامة، ومن ثم رسم الكاتب صورتين في غاية التناقض، أولاهما لعابد زاهد، وأخراهما للص منحرف، بينهما نوع من التناقض الذي يلزمه اتفاق الفعل مع القول، وقد استخدم الكاتب المفارقة التصويرية هنا؛ لإبراز التناقض بين طرفين متقابلين، وذلك انكارا للتناقض الكبير، الذي يعيشه مجتمع ملوك الطوائف من اللهو والترف والفساد، كما يعرّض بهم من طريق خفي، وهو أن قوما واعظهم محتال هم قوم سوء، ويكفيهم سوءا، أن واعظهم لص محتال، ومن ثم فالمكيدة التي أصيب بها الراوي، ترتد من خلال المفارقة، إلى مكيدة خارجية تستوجب الضحك المشوب بالبكاء؛ نظرا للحياة المتقلبة، التي يحياها المجتمع والناس.

(١) المقامات اللزومية، ص١٤١.
(٢) السابق نفسه.

خاتمة البحث

شكلت المفارقة في مقامات (السرقسطي) تربة خصبة، استطاع من خلالها، أن يرصد ألوان التناقض، وأشكال الترف، والفساد والانحراف، التي سادت عصر الأديب ومجتمعه، والتي شكلت جزءا كبيرا من مقاماته - كما مر في هذه الدراسة- فأطلع القارئ على الانفصام بين القول والفعل في شخصيات متعددة، منها شخصية الإمام والواعظ، والفقيه، والقاضي، والأمير والحاكم، وغيرهم، وكذا تنافر المكان والزمان.. وغير ذلك مما يعكس للقارئ الدلالات المتنوعة، التي توقفه على طبيعة مجتمع ملوك الطوائف في تلك الفترة، وفي ختام هذا البحث يمكن أن أذكر بعض النتائج التي توصلت إليها، وهي:

١- كشفت المفارقة في نماذج هذا البحث عن إدراك (السرقسطي) لجوهر الأشياء وحقيقتها، التي تجمع بين المتناقضات، والتي تحمل في طياتها الكثير من المفارقات المضحكة حينًا، والمبكية حينا آخر.

٢- أظهرت المقامات اللزومية من خلال المفارقة واقعاً اجتماعياً مشوهاً، فرسمت مخاوف (السرقسطي) إزاء هذا الواقع، وذلك انطلاقا من وظيفة الأدب، التي تسعى إلى تقويم التشوهات، التي تعتري الحياة، ومنظومة القيم المجتمعية.

٣- حملت صور المفارقة في المقامات اللزومية، رؤى إنسانية معاصرة، عبرت عن تناقض الأحداث والأفكار، واختلال الموازين، بقصد إعادة التوازن للمجتمع.

٤- برهنت المفارقة على وعي (السرقسطي) من خلال تجاوزه للثابت والمألوف؛ إذ الجدة والغرابة، واستحداث الصور والدلالات؛ يقوي النص، ويدفع القارئ إلى مزيد من التأمل والمتابعة.

٥- جاء أسلوب المفارقة في المقامات اللزومية؛ كرد فعل للأوضاع السائدة في مجتمع الأديب، والتي رأى ضرورة مجاوزتها، وعدم الانصياع لما يهدم الآمال، و يبدد الطموحات.

٦- أكدت الدراسة على أن المفارقة أداة أسلوبية فعالة، تعمل على خلق التوتر داخل النص، وإثارة القارئ وإدهاشه، ونقله من المعنى السطحي إلى المعنى العميق، بعيدا عن الرتابة والتقليدية والمباشرة، وبالتالي كان لها دور في إثراء النص وتماسكه، من خلال التضاد الذي يؤدي إلى تعدد المعاني، وتغير الدلالات.

وختاما: فقد بذلت جهدي وطاقتي في هذا البحث المتواضع، فإن وفقت لما هدفت إليه، فبفضل الله تعالى علي وحسن توفيقه، وإن كانت الأخرى فحسبي أنى لم أدخر جهدا ولا وقتا في سبيل إنجازه.

فهرس المصادر والمراجع

- الأعلام للزركلي، جـ ٧، دار العلم للملايين، ط ١٥، - أيار / مايو ٢٠٠٢م.
- آلية المفارقة، تعريفاها، أنواعها، طريقة بنائها، أثير محسن الهاشمي، مجلة ثقافتنا، بغداد، عدد ١٢، ٢٠١٣م، بتصرف.
- تاج العروس من جواهر القاموس الزَّبيدي (ت/ ١٢٠٥هـ) مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، دار الشروق- عمان، ١٩٩٧م.
- جماليات المفارقة الساخرة في النص الشعري العربي المعاصر، جريو خيرة، جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس - كلية الآداب واللغات والفنون- الجزائرية، م٤، ع١١، ٢٠١٧م.
- جماليات المفارقة الشعرية عند محمود درويش، رسالة ماجستير- جامعة بسكرة -٢٠٠٥-٢٠٠٦م
- جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ)ت: رمزي منير بعلبكي، ص٧٩٩، جـ٢، دار العلم للملايين – بيروت، ط١، ١٩٨٧م
- حدائق إبراهيم، أوراق إبراهيم طوقان ورسائله ودراسات في شعره، المتوكل طه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- الزمن في شعر ابن حمديس الصقلي، ختام محمد حسين العبودي، رسالة ماجستير - كلية التربية للبنات- جامعة بغداد، العراق، ٢٠٠٢م.
- عن بناء القصيدة العربية الحديثة، د. علي عشري زايد، مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ط٤، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

- عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، كمال أحمد غنيم، ص٢٣٧، مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٧م.
- فضاءات الشعرية، دراسة في أعمال أمل دنقل الشعرية، سامح رواشدة، المركز القومي للنشر، أربد،١٩٩٩م.
- الفكاهة والضحك، (رؤية جديدة)، د. شاكر عبد الحميد، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٨٩، الكويت، ٢٠٠٣م.
- في الرواية الفلسطينية، صالح فخري، مؤسسة دار الكتاب الحديث، لبنان، ط١، ١٩٨٥م.
- القاموس المحيط، للفيروز آبادي (ت: ٨١٧هـ) ت: محمد نعيم العرقسُوسي، ص١٠٧٨، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط٨، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- المخصص لا بن سيده (المتوفى: ٤٥٨هـ)ت/ خليل إبراهم جفال، ص٢٣٧، جـ١، دار إحياء التراث العربي – بيروت ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
- المعجم الفلسفي، مراد وهبه، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٩م.
- معجم ديوان الأدب، للفارابي، (ت: ٣٥٠هـ)ت: دكتور أحمد مختار عمر، ص٢٣٩، جـ١، دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، عام النشر: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (ت: ٣٩٥هـ)، ت/عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- المفارقة الروائية والزمن التاريخي، آمنة رشيد، مجلة فصول، مجلد٤، عدد١١، ١٩٩٣م.
- المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدلالة، د محمد العبد، دار الفكر العربي، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.
- المفارقة في الشعر الأندلسي، شعراء قرطبة نموذجا، نعيمة خالد عبد الرحيم، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، ٢٠٠٧م.

- المفارقة في القص العربي المعاصر، سيزا قاسم، مجلة فصول، مجلد٢، عدد ٢، ١٩٨٢م.
- المفارقة في اللسان العربي، د سعيد جمعة، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، مجلد ٣٠، العدد ١، ٢٠١٥م.
- المفارقة في النثر الأندلسي، عروبة عودة محمد، الجامعة المستنصرية، مجلة كلية التربية، عدد٢، ٢٠٢١م.
- المفارقة في شعر المتنبي، د. عبد الهادي خضير، ص ٦١، مجلة كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، م٣٥،ع١، ٢٠٠٨م.
- المفارقة في قصص بدر عبد الحق دراسة أسلوبية، نبيل مشهور محمد العمري، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، ٢٠٢٠-٢٠٢١م.
- المفارقة والأدب دراسة في النظرية والتطبيق، خالد سليمان، دار الشرق، عمان، ط١، ١٩٩٩م.
- المفارقة والرؤية في شعر صلاح عبد الصبور، د. أحمد فهمي محمد عبد الله، مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية، ع١٢،يونيو ٢٠١٦م.
- المفارقة، نبيلة إبراهيم، مجلة فصول، مجلد ٧, عدد ٣، ٤، ١٩٨٧م.
- المقامات اللزومية، لأبي الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي (ت٥٣٨ هـ)، تحقيق: د حسن الوراكلي، دار عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط٢، ٢٠٠٦م.
- موسوعة الإبداع الأدبي، د. نبيل راغب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١، ١٩٩٦م.
- نظرية المفارقة، خالد سليمان، مجلة أبحاث اليرموك (سلسلة الآداب واللغويات) م٩، ع٢، الأردن، ١٩٩١م.